نـجلا أحمد علي

الخط الحديدي

- قــصص -

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

Syrian Story

<u>من منشورات اتحاد الكتّاب العرب</u>

2000

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: **E-mail :** unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنانة : جمانة شجاع

❑❑

الإهـــــداء

إلـــى

أمي أنيسة

وأخواتي

ناهدة، ندى، ناديا

❐

حالة خاصة من النعاس

أسيادي الأفاضل:

فجرَ هذا اليوم أفقتُ على صراخ أمّي. كنائمٍ صُبّ على رأسه ماء، وأفقدتني المفاجأة صوابي، فقد داهمت النّوبة –في وقت حرج– أمي المصابة بداء عُضال.

غادرت البيت إلى الطابق العلوي، وجّهتُ عدّة لكمات لباب بيت الطبيب بدل أن أنقره، فانبعثَ الجيران إلى الرّواق مستطلعين كموتى يوم الحشر.

عاينَ الطبيب أمي وأعطاها مسكّناً، وناولني أنا وصفة، ثم انصرف الجميع متثائبين راجين لأمّي السلامة.

إلى هنا، يبدو لاعلاقة لاستيقاظي المبكر بحالة النعاس التي باغتتني.

سادتي:

ولأنّ الوقت كان مبكّراً لشراء الخبز، فقد صنعت شاياً لي ولأمّي واحتسيناه معاً. ولم يخلُ الأمر من بعض مواساة ووعود بشفاء عاجل مثل: (سلامتك.. هذا دواء جيّد.. اشربي الساخن ينفع..)

أيضاً قمتُ بلملمة البيت، وتسوية فراشي فيستحيل العودة إليه في ظرفٍ كهذا. في السادسة، تركت أمّي في عهدة الجيران وذهبت إلى (البرّاكة) فاشتريت ربطة خبز مع وقف التنفيذ، أي مع وقف الدفع لمطلع الشهر، فمن عادة الموظف الحكومي المشرف على بيع الخبز أن يثق بقدرتي وأمي على إيفاء الدّين فيقرضنا الخبز على حذر. ولم أنس التعريج على السمّان لاستدانة خمس بيضات وكيلو غرامين حليباً، فمن عادتي وأمي عند غياب الحواضر أن نستهلك بيضتين مع الشاي عند الفطور، ومثلهما عند العشاء، وبهذا لاتتعدى حاجتنا أربع بيضات، لكنّ الحياء يدفعني لشراء خمس راجيةً الله أن لايطول غياب أقربائنا عنا فيطول معه اشتهاؤنا للزيتون والزعتر أو مشتقّات الألبان التي يُحضرونها معهم أحياناً إذ يعرّجون علينا في المدينة.

بعد ذلك كان عليّ فتح النوافذ، وكنس البيت، فملازمة أمّي الفراش لم تسمح بشطفه. وفي السابعة أطلّت الشمس بحدة منذرةً بنهار حار بعد ليل مؤرق حبست فيه

في الساعة التاسعة ارتديت ملابسي على عجل لصرف الوصفة الجديدة من السوق، ولم أخط قيد شعرة قبل أن أترك أمّي أمانة في عنق الجارات.

في الشارع واجهتُ أمرين لايُطاقان: كثافة الزحام وحرارة الشمس. واضطّرتني قلّة المال أن أقطع الشارع العام وأصل السوق راجلةً، حيث ابتعت دوائي وصدمني ثمنه الباهظ... وصدمت كذلك رغبتي في العودة إلى البيت بسيارات الخدمة المنتشرة، التي تصل خلال دقائق إلى أبعد نقطة في المدينة فترحم الناس من سيلان العرق، وسياط الحرّ.

ها أنا أتابع سيري باتجاه حي (المينا)، عليَّ قبل العاشرة أن أصل دار المالك، وأدفع له أجرة بيته الذي

لعلّي الآن لا أحسد على وضعي: فأنا أشعر بـــدبيب حبّات العرق فوق جبهتي، وتحت ذقني وإبطيَّ، بل أشعر بتكثّف قطراته تحت الجلد، وانبجاسها خلال المسام خلف أذني وأعلى الفخذين وأسفل ظهري، مما تسبّب بلزوجـــة ونتانة ولّدت فيَّ استياءً.

حاولت تناسي الأمر وأنا أجدُّ السير بـــين شـــوارع مزحومة وأرصفة مأهولة، ولاشك أنّ النشاط الناجم عـــن مشيٍ سريع قد أحيا روحي، واستدعى انتباه النـــاس لـــي سيّماً وأنا أنسلّ بخفّة بين السيارات الواقفة بأمر من شارة المرور. وإن كان عليَّ أن أشعر بالحرج من ذلك.. فعلى الآخرين بالمقابل أن يتفهموا الدافع الأليم الـــذي جعلنـــي أسير كالمجانين تحت شمس حارقة فيمـــا هـــم يركبـــون (التاكسي).

إنني الآن أشاطر "ألبير كامو" أحاسيسه حين وصف الجزائر الحارّة في (الغريب) فقال أنها (بلدٌ تقتـــل فيهـــا الشمس الأسئلة).. فسخونة رأسي لاتـــسمح بـــالتفكير إلاّ بعودة سريعة للاطمئنان على أمي، والتقاط الأنفاس قبـــل

وحتى الآن.. يبدو لا علاقة لكل ماحدث في حالة النّعاس التي باغتتني.

فرغم مسيرة صباحية شاقة بددت نصف وقتي، وصلت في الحادية عشرة والنصف فوجدت أمي على خير حال، وقد بارحت الفراش مما شجّعني على أخذ حمّام سريع أنساني مشقّتي وآلام ساقيَّ، وردَّ إليَّ الحياة.

ودخلت الصف بذهن يقظ، وغبطة قلّما أحسّها تأتّت عن كفاح دام من الفجر إلى الظهر.

مضت الحصة الأولى على خير. وحتى بداية الحصة الثانية... يبدو لاعلاقة للجهود التي بذلتها في شرح بحث (النسبة والتناسب) في حالة النّعاس التي باغتتني.

معذرةً، سادتي الأكارم... فسأكفّ قليلاً عن الكتابة إليكم لأواصل الكلام... ربما مع نفسي.

***

أذكر تماماً رغم صدمتي بما جرى، أنها كانت حصة (أخلاق وتهذيب) وكان الدرس: "يوم الحساب".. فشرعت أوضّح معنى (أن يظلّ الله العباد في ظلّه يوم لاظلّ إلاّ ظلّه) ففي هذا اليوم نميّز فئتين من الناس: من خفّت

استندت بمرفقيّ إلى الطاولة. حاولت شــقّ أجفــاني والتظاهر بمراقبة مايجري، لكنّ نعاساً طاغياً أذبل عينيّ، فأمال رأسي، فأحنى ظهري، وأخيراً لامست جبهتي سطح الطاولة، واختفى وجهي بين ذراعيّ.

أعتقد أنّ همس التلاميذ تحوّل إلى صياح... وكــان عليّ رفع رأسي لنهرهم وإعادة الأمور إلى مجراها، لكن منعني قرب حلول الفرصة، وطغيان نعاسي وأعتقد أنّ يداً غضّةً أو أكثر ربّتت برفــق علــى ظهــري أو هــزّت كتفي...، بل أظن أنّ أحداً نفحَ أنفاسه في أذني ليسرَّ لــي بأمر... أو أنني كنتُ أحلم.

لكنَّ ما أيقنتُ منه حين أفقتُ من نومي علــى قــرع الجرس وماصاحبهُ من ضوضاء... وجود أشخاص ثلاثة داخل حجرة الدرس برفقة المدير. وحين أجلفتُ ووقفــتُ احتراماً، كان الوافدون قد مسحوني من فوق لتحت بعيون محمرّة وغادروا كالبرق.

دُعيتُ إلى الإدارة لحساب عسير... حاولتُ بحياء شرح أسبابي فبتر المدير استعطافي وقاطعني بحدّة، مشيراً إلى الإهانة التي يُلصقها معلم (بلا ضمير) بسمعة مدرسة وشرف مهنة، مُلمّحاً إلى غضب مندوبي الوزارة مني، واحتمال فرض إجراء صارم بحقي.

***

تقصّيتُ أسباب نومي أثناء رجوعي إلى البيت. فلو لم تمرض أمّي لكانت قاسمتني وزر الحياة في يوم صاخب كهذا. فإذْ تذهب في السادسة لشراء الخبز واللبن والبيض... يُتاحُ لي قسطٌ كافٍ من النوم فأنهض في السابعة لإعداد الفطور وغسل الملابس بارتياح وهدوء.

وفيما يصحبُها الجيران لاحقاً لتسديد إيجار البيت... أجلسُ إلى أوراقي فأقوِّم الاختبارات على مهل. ويبقى معي (بحبوحة) وقت قبل بدء الدوام، فلا أُضطّر لشيّ جلدي وتسخين دماغي بشمس حاقدة... إذ يبدو واضحاً لي الآن أنّ مانلته من تعب تسبّب في خَوران عزيمتي، وإضعاف قواي الجسمية والذهنية، وأدّى إلى نومي في الصف،... وتلك سقطةٌ لاسابق لي بها.

***

لكل حصان كبوة كما يقال. فهل يفهم السادة الأفاضل أنّ ماجرى هو كبوة من كبواتي؟ فيرفعون اليد عني

أمامَ سخط المدير وتعنيفه أجدُ نفسي مضطرة لتحليل أسباب حالة النعاس التي باغتتني على أنها حالة (خاصّة) وذلك بشرح الظروف الاستثنائية التي أدّت إليهـــا، ممـــا جعلني فور دخول الدار أُمسك قلماً وورقة وأخطُّ مايلي:

أنا الموقّعة أدناه العاملة (س) من الفئة الثانية أعرض مايلي:

أسيادي الأفاضل:

"فجر هذا اليوم أفقتُ على صراخ أمّي، كنائمٍ صُـــبَّ على رأسه ماء... وأفقدتني المفاجأة صوابي، فقد داهمت النّوبة –في وقت حرج– أمّي المصابة بداء عُضال...

1999/1/19

❐❐

حكايـــــة سوقيـــة

مات رجل يناهز السبعين في بلدة مجاورة لنـــا، ولا يذهب بكَ الظن إلى سكتة قلبية، فالضياع هنا تفتقد منـــذ أمد إلى حكايا تدغدغ الخواطر وتنعش الأخيلـــة، فجـــاء موت الرجل إيذاناً بفتح بـــاب /سمـــسم/ علـــى غرائـــب القصص والقيل والقال.

ولولا قلّة الحظ لاعتُبر موت الشيخ كموت قطة أليفة ونُسيَ بسهولة. لكنَّ الفضول الذي يسبح في فـــراغ مـــن ضجر شاء أن يجعل النملة فيلاً والقطرة بحراً.

ولايكاد يعي عاقل كيف آل موتٌ طبيعي إلى جنايـــة قتل، فحين أنهى الغاسلون تنظيف الميّـــت، توقفـــت يـــد العطّار فجأةً عن رشّ "الكولونيا" وعلقت في الهواء إثـــر

دُهش الحاضرون لأمرين: اقتحام الزوجة حجرة الغسل، واحتمال موت الرجل مقتولاً رغم غياب مايُنبئ عن جريمة من جسد ممدد بانشراح.

خلال نصف نهار شاع خبر جريمة، وعمَّ قرىً مجاورة...، وحلّق في فضاء الناحية...، ومساءً حطَّ في مركز شرطة المنطقة فاستُنفرت العناصر، وأوائل الليل كانت دورية أمن جنائي تجوب بصعوبة دروباً وحيدة سالكة إلى الضيعة.

كان تأجيل الدفن أمراً بديهيّاً، وإبّان ذلك بدا عسيراً على الأهالي قضاء سهرتهم دون تحليل النبأ وإظهار (فهلويّة) في فهم أسباب ودوافع الجريمة، وتقصّي الجاني ممّن لم يحضروا تدابير الدفن أو يشاركوا فيه، أو ممّن بارح القرية فجأة أو عزم على قضاء الليلة خارجها، أو كانت له عداوة مع الميّت، أو مصلحة في بيع أو شراء أو رهن بوصفه ملاّكاً زراعياً كبيراً.

"أم علي جحجاح" أسرّت لجاراتها في الثامنة ليلاً بما دار في مجلس زوجها وسُمّاره الذي لم ينفضّ بعد، ومفاده أنّ (غريب بن لطف الله) ارتكب القتل كي يضع حدّاً لنيّة (أبو البدر) بالاستيلاء على أرضهم المرهونة لقضاء دين

وفي الحارة الغربية نُقل عن (أبو عتاب) شكوكه في الكنّة (بثينة) التي اشتهرت على مستوى البلدة بمناكداتها لحميها البخيل، وأُذيع عنها مراراً سخريتها منه حين تسأل: إلام يكنز الأموال؟ ولمن؟ لتمنع عنه الموت أم لتؤنسه في القبر؟.. وتحدّثوا عن احتراز (أبو البدر) من تناول أي طعام في دور أبنائه خشية أن يقوم الأصهار والكنّات –وكلهنّ عاصيات– بدسّ السمّ في طبقه ثم السطو على أرزاقه.

(مَدْيَن) رفيق طفولة بدر، حلف بمقامات الصالحين التي تحيط بالبلدة كعسكر أنّ فاعلها هو بدر عينه. وإلاّ نهى زوجته وزوجات إخوانه عن التحرّش بأبيه، وما كان تمادى في حثّه على تقسيم الورثة بالترغيب والترهيب وافتعال شجار أفاقت عليه الجانّ في الأوكار، ممّا جعل العجوز يلوذ بنفسه إلى الغابة لالتقاط الأنفاس. فلطالما أخذ (مدين) على بدر ولعه بحب نفسه، وعدم برّه بالطّاعنين

وكان للحارة الشرقية رأيٌ مختلف في المسألة. فلم يُبتَلى بموت أبي البدر شخص من قريته، حين يكثر في الجوار خصومه والمتضررين من تربّصه الذئبي بفرص مصادرة أملاكهم لحنثهم بميثاق معه... لعلّه (أبو فريد) فاعلها أو (أبو جنادة) الذي أحرق زيتونه ذات سنة ودخل السجن ثم خرج بكفالة.

بقي في البلدة مكانان: حارة (الضّهر) وحارة (الوطا).

أما (الضّهر) التي وصلها الخبر متأخراً لتوغّلها في حرش جبلي ناء، فقد استنكرت موتاً لأبي بدر بغير تدبير القضاء والقدر سيّما لكبر سنّه، ودعت أهالي الحارتين الشرقية والغربية للكفّ عن إيقاد الفتن ورجم الناس بتهم باطلة. وذكّر أفراد العائلات الأربع التي تؤلّف الحارة في كلام نقل للمختار لاحقاً أنّ حماقة أهل الحارتين وسماجتهم. أهمّ أسباب لجوء هذه الأُسر للجبال فهنا تبدو الضباع والثعابين والذئاب أكثر أنساً.

بقي (الوطا).. وقد لاذ أهلوه بصمت غريب، وانصرفوا بعد الحادثة إلى بساتينهم السهلية دون تعليق سوى: (أكل عمره) و (يرحمه الله).

عند المختار في الحادية عشرة، كان مصباح أصفر

في منتصف الليل نامت حارة الضّهر علـــى سُـــخط وتبرّم، وتغيّرت قناعات أهلها نصف درجة، فإن كان لابدّ لأبي بدر أن يموت مقتولاً فقد مات (فقْعـــاً) مـــن مكائـــد الناس، وإلاّ ماعثر عليه نائماً بين أشجار صنوبر نائيـــة، لائذاً بفرار لتتاح له السّكينة إثر شجار مُرّ مـــع أبنائـــه. وعموماً تبقى الجريمة مستبعدة في بلدة فُطرَ ناسها علـــى بساطة وطيبة حتى لَتَرقّ قلوبهم لمقتل شاة.

وفي (الوطا) أنهى المزارعون تفقّد أحوال البندورة والخيار في قباب (البلاستيك)، وحوالي الثامنة، سُمع شخيرهم للجقال والكلاب الشريدة أسفل الوادي. إذ أدركوا ببساطة أنَّ لُدغة أفعى في حرش، تكفي لقتل أعتى الرجال، وهو ماجرى لأبي بدر غالباً. ولأنّ (الحيّ أبقى) فالعناية بغلالهم خيرٌ من هدر الوقت في تلقّف الأخبار. مع هذا، لم تتم بقيّة الضيّعة، ولا انفضّ مجلس (آل جحجاح)، ولا مجلس (أبو العتاب)..، ففي التاسعة ليلاً

وفي العاشرة، أجمعَ الرأي –ونادراً ما يُجمع– على سمسار أراضي في ضيعتنا يقال لهُ (أبو غاندي) الدلاّل. وكانَ شَهِدَ زوراً في قضية نِزاع أبي بدر مع جيرانه على حدود أرضهِ الشمالية... من يومها استحكمَ خلاف بين الرجلين فواحدٌ يتّهم الآخر باللصوصية والبخل والجشع. وذاكَ يُشيع عن صاحبهِ غش الزبائن، وفوضى السمسرة التي تجانب أصول القانون... وقيل أنهُ لدى لقاء الرجلين في المحكمة نشبت بينهما مشادة مُعيبة اضطُرَّت القاضي لرفع الجلسة وتهديد الطرفين، بسبب تصريح (أبو البدر) أنّ شهادة خصمهِ كشهادة (كشّاش حَمام) وبالتالي لا تُقبل.

وفي الحادية عشرة. احتارَ كثيرون في قاتل أبي البدر: من داخل المنطقة أم من خارجها؟!.

وفي الثانية عشرة توصّلَ أحدهم إلـــى مـــا يُفيـــد أنّ الرجل انتحرَ هرباً من عذاب الضمير وتنامي عداواتـــه. وهذا كانَ كافياً لإنعاش الرؤوس الناعسة، وشدّ السهرات من أذنابها لتطول أكثر.

ونُوقِشَ أمران: انتحرَ مسموماً أم دحرجَ نفسهُ إلـــى الوادي؟؟... وأُشرعت ألسنة، وسخَنَ جـــدال، وتناقلـــت النساء أخبار جديدة، وقُربَ الثانية ليلاً بـــدأت الأضـــواء تشحّ والفوانيس تنوس وأخيراً...

نامَ الجميع.

***

في حياتي كُلِّها لم أَعجب لقصة كهذه. فالموت وارد، والجريمة واردة وإن ندرت في منطقتنا ندرة السمك فـــي الجبال.

إنَّ ما أدهشني العقول التي لا عِقال لها، وألسنةُ أهل ضِياعِنا التي ما إن (يدق الكوز بالجرّة) حتى يُحَلّ لِجامُها فتنطلق بثرثرات وتلافيق رخيصة لا يبرأ منهـــا بعـــض ضحايا. فهل تكفّ الصنابير المفتوحة من غَمْر الدّلاء بما لا طاقةَ لها به من ماء؟!

بموت (أبو البدر) قد يحدث هذا. فقد حضرَ الطبيـــب الشرعي صباحاً. وعُلِمَ أثناء ذلك أنّ هجوماً نسائياً شـــنّتْهُ كنّات (المغدور) على أم عتاب وبَنَاتها، تبادلَ فيه الطرفان

وفي محلٍّ آخر اشتبكَ (بدر) و (مدين) في مُلاسنة كلاميّة مقذعة لم تُعرف تطوّراتها بعد.

فيما انهالَ (أبو علي جحجاح) بالضرب على زوجته لتسريبها أنباء شكوكه في (غريب بن لطف الله) للجوار. أما (لطف الله) نفسهُ فقد سبَّ ولدَهُ ونَعَتَهُ بأشنع النّعوت للوليمة التي أَوْلَمَها أصدقاءهُ شماتةً برجل ميّت.

أخيراً... أعلنَ الطبيب الشرعي نتيجة الفحص.

وحينَ بلغَ العراك النسائي أشدَّهُ، وبرقعت الدماء الأرض... اقتحمت جمهرةُ نساء بيت أبي العتاب وصرخت أكبرهُنَّ سنّاً برجاء حارّ:

–حرام عليكُنّ،... توَقّفنَ حُبّاً بالله... يا جماعة.. المرحوم "مات مَوْتة ربُّه... مَوْتة ربُّه ولا شيء آخر...".

***

بعض الأمور هكذا يا أصدقاء، كصنابير مفتوحة أصابَ مغالقَها عطبٌ فجائيّ... فاسترسلَ الماء في السّكْب... وامتلأت الدِّلاء، فحدثَ غَمر..، فَغَرَق، فطوفان...

فاحذر تلكَ الصنابير، وإلاّ رُحتَ في الطّوفة.

1999/1/17

❐❐

لو لم تكن قدماي تؤلمانني

صورة أبي منصوبة على الحائط

وجه نصف جانبي. شعر مفروق بعناية، ممسد بالزيت، نظارة دائرية مضحكة تتكئ على أرنبة أنف ناتئة.

جفنان يتهدلان على عينين ناعستين.

سترة رماديّة من الكتان، تحتها صدرية زرقاء مزرورة بأناقة، تبرز من قبّتها ربطة عنق مقلّمة.

الكف اليسرى استراحت على الخاصرة، واليمنى احتجزت بين الفكين غليوناً مبتذلاً.

الصورة إجمالاً مبتذلة، بهذا أُفكر وأنا ممدّد على

من خمسة عشرَ عاماً والصورة تفتح شبابيك أمل كاذب في حلكة الليالي البائسة. تضرب مواعيد مخلوفة لعودة مغترب يدعى أبي.

أذكر أبي... والكيفيّة التي هاجرَ بها بحيثيّاتها وتفاصيلها المكرورة. لم أرَ شيئاً من ذلك، ولا حتى أبي، فعمري الآن لا يتعدى الخامسة عشرة، لكنّ الضيعة تذكر... والسنديانات والمفارق والربوات وصنوبرات الجبل والمنحنيات يومَ رحيله...

كانَ نهاراً رمادياً، رائحة الشتاء تهبط من الأقبية الرطبة تنزلق على الجدران الطينية تاركةً أثر عفونة. تنساب من التربة العطشى جنيّةٌ تصوغ من الطين والبَلَل رُضاب عطر ينعش الأرواح.

الناس واجمون كأنّ جثماناً سيُشيَّع أو مهلكة ستقع، لا حسّ ولا صوت خلا همهمات انتثرت في جنبات البيت العاتم الذي أَمّهُ الغريب والقريب. وفي الساحة المسترخية قدّام باب خشبي تجمهرَ أطفال وصبية ومتطفلون يشهدون وداع ربّ الدار. وكانت شجرة لوز عمرها من عمر البيت تحني أغصانها أسفاً وبدا أنّ جذعها أوغلَ في التقشّر، وجذورها توشك أن ترخي قبضتها وترفع

وحينَ أزّت عجلات سيارة غريبة، عــانقَ الجيــران أبي وارتجّت أصوات النساء حادّةً في أجواء الحارة تنثــر الدعوات بالتوفيق والسلامة. وكشفرة تقشط جناح فراشــة ملأ بكاء أمي النفوس ألماً وتطّيراً وآخر ما رجمت به أبي قبل أن يتوارى لخمسة عشرَ عاماً دون خبــر صــراخُها النافذ حتى العظام:

–رح، اتركني وحدي.. الله لا يــسهّل وإن فكّــرت بالرّجعة فلأجل ما ببطني وهؤلاء...

وشدّت إلى خاصــرتها ووركيْهــا أختــي (بهيــرة) وصبيين آخرين، أما أنا فلم أكن رأيت النور بعد.

سافرَ أبي وهيهات أن يرجع بسلامة أم بدونها. المهمّ في الأمر أنّ أمّي تناست غيابهُ من لحظة رحيلــه ببدلــة مستعارة، وحقيبة تبرّعَ بها أصحاب صرَّ فيهــا ملابــسهُ وساعة بسلسلة فضيّة وليرات وفرنكات شدّها بحزام فــي كيس صوفي بدا كخابية صغيرة أو إبريق.

بهيرة أيضاً نسيت والدنا وعجّلَ برعمها بــالتفتّح لا لُتعشق أو تُحبّ، بل لتعارك وأمّنا ويلات الزمن. وقفــت مرّةً أمام مرآة –عفو الخاطر– تلمّست بغرابــة وخــوف ربوتْين نفرتا في صدرها... وشعر انسابَ كستار مخمــل على ظهر صقيل وسواعد مكتنزة، لمعت مفارقهُ كأنَّ يَــدَ

من اليوم الذي اعتقلت فيه بهيرة أُنوثتها وحزنٌ مرير يعايشني.. أكبر فيكبر معي، ويُنضج وعيي قبل الأوان.

الفرشة العفنة التي بَقَرَتَها بهيرة بسكين كالخنجر يخيفُني لمسُها، تتدلق أحشاؤها على الحصير كتلاً من قطن مُصفَرّ لهُ رائحة الصّدأ والحديد المحروق.

أتمدد على الحشوة كهرّ استمرأ العطالة والزوايا التالفة.

في انتظار أن تحشو بهيرة الفرشة وتخيطُها ثانيةً أستمتع بحريّة واسترخاء لكامل جسمي وعضلاتي فلا شريك لي بفراشي اليوم.

غضبُ أمّي يباغت فرحتي فتجفل وتنطمس تحت

فرشت بهيرة شوالاً من الخبز اليابس على الأرض. وشرعت المرأتان تكسّران الأرغفة الرمادية، وتلعنان حظّاً خائباً قاهراً رَفَسَهما إلى الدرك الأسفل من الحياة وصَنّفهُما كأُجراءٍ للآخرين، تعتاشان من نبر الزيتون وطحن الجوز والدقيق وتقشير الفستق بالأجرة، وقد تدخلان في شراكة تجارية غير متكافئة كما الحال مع بقرة الجيران فتؤمّنان قوتَنا من اللبن لقاء تعليفها وتسمينها والسهر على ولادتها والنوم على خوارها ومعاينة أمراضها ومسايرة أفانين دِلّها وغنجها...، وحيثما اتفّقَ ووجدت بهيرة فرصة عمل فهيَ لا تتردد في اقتناصها واهبةً حياتها (كأُضحية) من أجلنا، حتى أنها رهنت نفسها كـ (دادا) لأولاد الحارة الذين حظيت أمهاتهم بوظائف حكومية في المدينة فكان على (الدادا) بهيرة أن تبتكر حيلاً تردع الصغار عن المطالبة بأهلهم بافتعال ألعاب وتمثيليّات ساذجة تبدو بها كمهرّج لم يتقن عملهُ ريثما يستردّ المؤتمنون أماناتهم من عندها.

يبدو انفعال أمي وبهيرة حاداً هذا المساء لدرجة أنّ أمّي لم تفطن لنومي على القطن وإلاّ ما سلمْتُ من سُخريتها اللاذعة كأن تعلّق هكذا:

-ما تفعل يا فدّان هنا؟ أكل ومرعى وقلّة صنعة؟... شكراً لله الذي باركني بفدادين تجتّر وتشخر فتؤنس وحدتي...

وما كنت لأُبادل أمي نقمة بنقمة إذ تسوطني بمقذع شتمها بل تأخذني بها رأفة، ويستبدّ بي حزنٌ وعَجز يمحق اخضرار الأمل فيتصحّر القلب ويعجف عندها..، تفّر العين إلى الصورة المحايدة، تتعقّب مسارات الخطوط الزيتيّة، وتزاويق فرشاة غرّة رسمت خارطة كذبة سوداء وملامح سحنة مغبونة ساذجة ورثُتها عن رجل يُدعى أبي...

-عُدْ إلينا يا أبي...

وإذ لا تقع العين على ما يريح الخاطر تروح فُرْجَتُها تضيق حتى تنطفئ شبه نائمة في لحظة يأس وخصومة مع القَدَر.

الشتاء حزين، الحزن ذاتهُ يحتجّ لتعاسة أمّي. يريد أن يطفش، لكنَّ يداً تشدّ أطراف ثوبه فيمكث بقتامتهِ وثقله..، وكانون طاغية تَعِس يكسّر البَرَد شظايا حقد تغتال دروباً طيّبة ونوافذَ بريئة وحيطاناً عزلاء، وأنا فوق الفراش أعقدُ

"النوم موت مؤقتّ"... يقرُّ بذلك العلـــم علـــى ذمّـــة معلّمنا الذي أكثر ما يسوؤهُ أن يُباغِتنا مُتَلّبسين بالنوم على المقعد أو لاوين أعناقنا في حالة شـــرود ذهنـــي. حينهـــا تقتضي المصلحة المهنيّة و (أمانة الرسالة) أن يُلهب أكفّنا بقضيب الرمان فتفرّ الدماء إلى وجوهنـــا فاضـــحةً هَلَـــع نفوسنا وذلّنا وانكسارنا.

قضيب الرّمان يجعلني أُطبق جفناً وأشـــقّ آخـــر... حاجتي للنوم ملّحة والوجوم الشتائي يغري بـــذلك، مـــن جهة... عليَّ استظهار درس التاريخ واستكمال حل مسألة رياضية عالقة، وبمجرّد أن (يُميتني النوم مؤقتاً) فسأعجز عن (بعث) روحي قبل الصباح فأبلغ المدرسة يعترينـــي انزعاج المقصّرين.

بهيرة وأمّي تتصايحان. تنعيان حظّهمـــا،... رغـــم الجلبة أكاد أتخدّر كليّاً وأغفو.. يدخل إخوتي الدار، يقرقع الباب، أفتح عينيّ بتأثير تنبيه عصبي حامداً الله لأنني لـــم أنم فبالكاد يتسع الوقت لاستئناف الدراسة.

لحظات، وأهبّ من مكاني كباشق لمحَ فريسة ضالّة، أثب عدّة وثبات..، أحرّك جذعي وأطرافي بعنفوان ونزق فأُشعل في جسمي مجمرة حقيقية، خلال نصف ساعة أُتِمّ

في محاولة يائسة لإبقاء عينيَّ يقظتين أُعاود النظـــر إلى صورة أبي... خواطر طارئة تنكص بي إلى ذكـــرى أوّل كذبة أتتنا عن عودتهِ، يومَ تحمّسنا حماسَ من عـــانقَ عندهُ الحلمُ الحقيقةَ، وصافحَ الواقـــعُ الخيـــال، وبتـــوالي الكذبات عرّشت المرارة في القلب عنكبوتاتِ خيبةٍ ومقت يلوك براءة الحلم ويغتال الأمان.

–لن يعودَ أبوكم.. انسوه.

قالت أمي بجمود في ذكرى الكذبة العاشرة عن عودة أبي. من وقتها، أُسدل الصمت على الموضوع، وانعزلت أمي في غرفتها ساهمةً لأسابيع حتـــى خـــشينا أن تفقـــد صوتها أو عقلها. وحين فتحت بابها، ملأت البيت صراخاً ولعناً..، قذفت رفشاً إلى بهيرة واعتقلت معولاً وانطلقـــت الاثنتان تواصلان الكدّ في الزراعة والـــسقاية والتعـــشيب وجني المحاصيل حيثما اتفقَّ ووجدتا مـــن يبتـــاع قـــوة

وشغلنا –نحنُ الصبيان الثلاثة– مرتبة الوصيف لأمّنا وأُختنا نأتمر بأمرهما، ونضطلع بمهام بسيطة لا تتعدى جلب المتاع ونقلِها وتوصيلها.

–البردُ يُناوش عظامي...

أتحسسّ بيدي الباردة ساعدي المطوي تحت رأسي... يبدو الساعد دافئاً من أثر الثقل الذي يحمل، ومن فرق الحرارة بين اليد الطلقة واليد المقيّدة إلى الرأس أشعر أنّ اليدين لا تنتميان معاً لجسمي، فكأنهما عضوان في بدنيْن مختلفين، هذا لأني لا ألتفّ ببطّانية، فقد ارتميت بكل ثقلي وتعبي منذ وقت على القطن الأعجف وجمّدني البرد في انحناء تقعّري حتى أني لا أقوى على الانقلاب إلى الجهة العكسية، فالبرد سيهاجم بضراوة الجانب الدفيء من جسمي.

أقسى ما في الأمر أنّ جواربي مغسولة، ها هيَ منشورة على طرف كرسي مخلوع والماء يقطر منها فقد ابتلت في الطريق الموحلة إلى المدرسة. وحدثَ هذا مع إخوتي، فأرغمتنا بهيرة على خلع أبواط (الغوما) الملطّعة بالطين وتسليم جراباتنا الملوثة للغسل الفوري كضريبة لدخول البيت، فمن صادفَ خُفّاً أخفى رجلُه فيه أو عثر على قبقاب بهيرة العتيق انتعلهُ ومن لم يجد لفَّ قدميه

المطر يطشطش في الخارج كدرنات بطاطا تتقلّب في مقلاة. تطل السماء حالكة في كوّة الحائط..، الرؤيا تنعدم تحت سلطان العتمة،... تضيء بهيرة شمعة في حجرة مجاورة، تغادر وأمي البيت يلحق بهما الضوء إلى الحظيرة، هناك يخور العجل متحدياً طشيش المطر.

يا لَلظّلام يطوّق الحجرة آمراً بالنوم. أبدو مقتنعاً بخسارة الرهان الذي عقدْتُه مع نفسي، فالنهوض من الفراش الآن يعادل البعث من قبر.

المشكلة عندي تتعدى كسلاً غَشَيني وصقيعاً يَبرد عظامي، فينكمش لهُ جسمي، ويتكرمش جلدي بصورة تنتأ فيها المسامات، وتنتفخ كحبوب صغيرة نتجت عن فطور جلدية... كل المصيبة في الجراب الصوفي المغسول فلو كان يحبك بشدّة على قدميّ العاريتين، وساقيَّ دونَ الرّكب، لنالَ الازرقاق والألم اللعين قصاصاً على ما يُلحقانِه بي من تنكيل وعذاب. أما وأنا على هذه الحال فمستعدّ للإجفال في أية لحظة تتلامس بها يدي الباردة فوق مع نظيرتها الدافئة تحت. وفي فكيّ، يغرز البرد أورامَهُ فتكاد اللثة المقرورة تنشقّ عن دعامات الأسنان، رغم هذا وخلافُهُ ظلت عيناي تنوسان بين فتح وإغماض حتى سكنت الرعشة فيهما وأسبَلَتَا معاً.

***

دوّى صياح أمي كطبول تُعلن نفير الحرب:

"يا فدَادين،.. يـــا عجّـــان قومـــوا...، فـــات وقـــت المدرسة".

قفزتُ من مخبأي كأرنب بُوغتَ بطلقة صيّاد، تلمّستُ جواربي، عجنُتها بيديّ، ما تزال مبتلّة. لبـــستُها مكـــابراً على الألم وعلى نِمال واخز شَلَّ أمشاط أقـــدامي. زررتُ سترتي بأصابع فقدت لونها. اختطفتُ كتبي كيفمـــا كـــان وهُرعت على الطريق الموحلة إلى المدرسة..، إخـــوتي يلهثون في إثري، والمطر حيوان شـــرس يـــسدّ الطُـــرُق ويغشى الرؤيا كالضباب المُدلهّم.

في مدخل الصف وقفت كشجرة قـــصفَ الإعـــصار غصونها ولوى رقبتها. سرى لغط وتأوُّه، تحول الـــصف إلى قاعة محكمة أنا المتّهم، رفاقي شهود، القاضي يجلس على كرسي خيزران، يُريح بطّة ساقه اليمنى على جنبـــهِ الأيسر.. يصفّق بالقضيب البني الغليظ على راحـــة يـــدهِ ساهماً متأمّلاً.

-أينَ كنتَ يا وَلد...

لم تصدر عني كلمة. تخاذَلَ صوتي. تجمّدَ من البرد،

أومأَ إليّ بالاقتراب.

القرّ والبلل أبطأا حركتي فدنوت بتثاقل مباعداً ما بين ساقيّ كمن تغوّطَ في ملابسه. هبّت عاصفة ضحك وظُنّت بي ظنون.

–همّ... جئتنا متأخراً، لِنَر إن كنت حفظت درسك.

انطلقَ في استجوابي من درس التاريخ، أبدى صبراً في انتظاري وكأنهُ يحزر النتيجة سلفاً ويتلذذ بتعذيبي، لم تُسعفني الذاكرة، فأمس استظهرت الدرس بعجالة على نيّة أن أنام (قليلاً) وأعود متنشطاً فأُغيّبهُ وأفكّ طلسم الأُحجية الرياضية.

قلّبَ الأستاذ بتأنٍّ مقصود دفاتري المبتلة:

–هم... م م م، لم تُكمل وظيفة الحساب، لم تكلّف نفسكَ عناء تبييضها حتى.

بعد صمت ثقيل اعتكرت ملامحه، تجعّدت عقدة حاجبيه، استقامَ أمامي ماردَ رعب وهلع..، بصعوبة تكمّشت أصابعي بقماش البنطال المتهدّل. الصقيع ينساح

-آ ا ا ا ا ه...

تميد الأرض لصُراخي، القضيب يحلّق في الفــراغ متبجحّاً بسلطانه على النفوس ويسوط بضراوة أطــراف أصابعي وظاهر كفيَّ.

مع كل جلدة يشق المعلم فضاء الصف صارخاً:

-تتأخّرْ، طِخّ، درساً لا تحفظ، طِخّ، وظيفة لا تكتب، طِرِخْ... تعوم في المستنقعات وتأتيني قميئــاً كحــشرة، طِرِخ، أسألُكَ فلا تجيب.. طِرِخ طِرِخ طِخّ...

وينبثق صوتي من رماد العجز حارّاً أليماً زاعقاً:

-آ ا ا ا ا خ... أيّ بيّ بيّ بيّ.

بملء الصوت الذي استعدتُه، وددتُ لو أصرخ أمــام محكمتي وقاضيَّ والأرانب التي تضحك على أنفسها حين يدور عليها الدولاب وتصيبُها الطلقة.

وددتُ لو أطلب مُهلة، فسحة وقت إضــافية أوضّــح فيها أشياء وأشياء ينبغي قولُها.

اللعنة على البرد، اللعنة على الوجع. لــو لــم تكــن

اللعنة على الجراب الملوّث. اللعنة على بهيرة التـــي لم تعصرهُ جيداً ليجف بسرعة.

اللعنة على الشتاء...، على النوم...، على حظّي...

لكنَّ شيئاً من هذا لم يحدث.

.1999/3/23

❐❐

نعــوة زمــن

ذات مساء، أطبقَ الاكتئاب على صدر "طرطوس" أُسدلَ على الشوارع والساحات فأذبلَ النفوس ووشّحَ السحنات باصفرار وسهوم، كان اليوم غائماً، لاحت فيه بوادر التشتت والشّعَث على المكان والزمان والإنسان.

لم تكن المدينة الخاملة لتصدّق أنها ستشهد حدثاً فريداً في ثاني أيام موجة صقيع تدهمها، وأنّ فرقة مشاة ســتؤم شوارعها في مسيرة غير منتظرة، فتشحذ حواسّها لمراقبة ما يجري بحيادية بلهاء وتخاذل جبان.

ساحة "المشبكة" الأزليّة لا تفتأ تعلن على الملأ أنهــا قلب المدينة وسواها الأذرع والأقدام، وتــشمخ بــساعتها المنغرزة وسط (الدوّار) كجاســوس يستقــصي خطــراً

قبالة الساعة في اتّجاه: جنوب شرق، تهالكت سينما "العبّاسية" على رصيف واطئ كعجوز (نحس) أعيا أنفاسها تقادم العهد، ونضح من عينيها شوق لمجد غانية أفلَ نجمها إلاّ من بريق يغري طفلاً مشرداً أو غلاماً تعساً بالاقتراب. أمّا روادها مِن البالغين فيصعب التكهن إن كانوا بشراً أسوياء، أم استولت عليهم البلادة.

على الضفة الثانية للشارع الرئيسي يقدّم مطعم شعبي وجبات سريعة لزبائن عابرين، وتسمح الواجهات الزجاجية للمطعم بتأمل منظر جزئي لشارع الثورة في ذروة نشاطه.

على امتداد المطعم بانحراف شمالي غربي يصادف المستكشف لطرطوس محلّ عطور أنيق ومخزن فخم للألبسة الأجنبية.

وعلى الكتف المقابلة للطريق تتربع الحديقة المركزية بأبهى إطلالة شمال شرق الدوّار، ويشكل شارع الثورة الذي تتوسطه الساعة عموداً فقريّاً للبَلَد تتفرّع عنه أذرع وذيول.

في هذا المكان من طرطوس، حوالي الخامسة من مساء /18/ شباط 1999.. لفظَ الزمن آخر أنفاسه، وأحنى عنقاً تعمشقت به خطايا بني آدم حتى لم يعد يقوى

عند مدخل بوابة ثانوية للحديقة، انتحى بائع (ترمس) بعربته.. إلى جواره تربَّع طفل على كرسي واطئ من القشّ.

على حائط السينما استند شخص مكتوف اليدين، ذو لحية أتت على معظم وجه نحيف أسمر يشيع الارتجاف في الأوصال.

أمامه على بعد خطوات وقفت امرأة مكتنزة وشابة نحيلة تنتظران باص النقل الداخلي، ولاح من اضطراب ملامح الفتاة أن (تلطيشاً) مقذعاً يصلُها من وشوشات المتطفل الغريب.

أمام المطعم، فوق صندوق مهمل جلس شيخ نحيف مسنداً ذقنه على عكاز استقرت ساقه بين ركبتيه، وجسَّد بمعطفه الكئيب وغطاء رأسه المنحسر عن صلعة مرقطة أنموذجاً لمشرّدي الحروب أو ضحايا الفاقة والعَوَز، بالقرب منهُ رجلان ضخمان يأتيان بنهم على شطائر (جبن) فيما تجمهر بعض ناشئة قدّام متجر الألبسة المستوردة يحدّقون بوقاحة في السيقان المكشوفة

وعلى رصيف الدوّار انزرع شرطي مرور بوجه عابس وصفارة تماهى صراخها الحادّ بزعيق رياح مشبوبة بعثرت منثور الأوراق المصفرة والأتربة الناعمة في الطرقات والعيون.

بقي كل شيء راكداً ناعساً حتى أفلتت صرخة استنكار من إحدى أربع بنات دلفن إلى الشارع..، وما أسرع ما صوبت السبابة سهمها في اتجاه السينما، وسجل (الأنا الأعلى) أوّل أحكامه:

-مجنون.. انظروا.. مجنون..

شبّت نارٌ في هشيم، وتداعت الأنظار من كل ركن مسلطةً سيوفها على شاب ثلاثيني قصير، مربوع، ضاقت على بطنه النافرة كنزة بنيّة من قطن رديء، انزاحت قليلاً لتبرز انخماصاً جلدياً مستديراً كاد يضيع في تلافيف البطن المترهلة.. ولطخت الأكمام بقع صفراء نجمت عن إتيان التمخط في غير أصول..

تحت البطن المندلقة ظهر حزام رفيع من المطاط الأبيض، بالكاد لملم أطراف (بيجاما) مهترئة انفصلت عنه لتشكّل فجوة عند الخاصرة اليمنى، وأخرى واسعة في الخلف، وكان من دواعي الأسف أن تفضح الفجوتان غياب أثر اللباس الداخلي وتكشفا عورة الرجل في وضح

كان يمضي قاطعاً الشارع بقلق ظاهر، وتوتر يائس.. وجهه أحمر منمش، شعره أجعد تدلّت خصلاته شعثاء على جبهة عريضة وعنق ثخين.. واتصل سالفاه بلحية قذرة اتفقت مع حاجبين غليظين وملامح خشنة على إحياء مشهد لإنسان الحضارات الأولى.

على باب الحديقة.. توقف ابن بائع الترمس عن قرط الحبّات الصفر، ووثب إلى كتف أبيه الذي ابتعد به مسافة خمسين متراً لمعاينة المشهد عن قرب.

وكفّ المراهقون غلاظاتهم عن حسناوات محل الأزياء عابرين الشارع بحماس أعمى، مسابقين حركة المرور الخطرة وصولاً إلى الساحة حيث يمضي المجنون هارباً.

العجوز المركون على باب المطعم تلقى المشهد ولم يعه مباشرة.. ثم أجفل فاستقام على عكّازه بصعوبة، ممعناً النظر في الطرف المقابل ماسحاً جفنيه المحمّرين بطرف شاله.

ودهشَ الرجلان النّهمان فعافا الطعام ولاحقا عابر الطريق بعيون هازئة..

على الرصيف الدائري ما عاد شرطي المرور يبالي بمخالفات السير وانجرف مع آخرين في تَتبُّع حدث فريد.

وعلى رصيف السينما الذي يبعد أمتاراً عن (الدراما الحيّة) انقطع الرجل المشبوه عن التحرش بالبنت وأمهـا، وهاتان انشغلتا عن الباص وعن التذمر من الرجل مع أنه اقترب وحاذاهما..

فالكلّ متأثر بعدوى القطيع، منجذب بقـوى قـسرية لرصد عُري رجل يعبر قلب المدينة في معمع عاصفة.

أربعُ البنات انزوين جانباً.. غضضن الأبصار حياءً وشفقة، توقفن عن السير في انتظار اختفاء (المجنون) من الشارع خلافاً للحافلات التي أبطأت سرعتها لتواكب محنة عابر السبيل فتأخذ نصيبها من الانشراح والفرجة.

تابع المجنون سيراً لا يحسد عليـه وسـط الـشارع متحاشياً الدنو من الرصيف اليميني حيث احتشد النـاس، واستطالت قاماتهم خلف المرأة والبنت والرجل المريب.. واهتدى وهو يمضي قدماً إلى فكرة تـسعفه مـن حيـرة وعار، فانحرف صوب الحديقة الطولانية الفاصـلة بـين شطري الشارع، هناك، ينأى عن (المتفـرجين) وتتكفـل شجيرات النخيل العتيقة داخل السياج الحدائقي بحجبه قليلاً عن الرجال الثلاثة الواقفين عند المطعم ومن انضم لهـم من مشيعين.

(البيجاما) المتآمرة، أمّ الرّقع والفجوتين والأطـراف السفلية المهترئة رفضت الاستجابة لكفين خشنتين لم تكفّا

الرّيح شمالية غبراء.. بحر هائج من موج نــشط لا مرئي يتكسر عند الساعة حيث تتضارب الجهات وتتباعد العمارات الشاهقة مفسحةً مكاناً لإمــارة الــساحة علــى المدينة دون منازع.

ما إن حاذى المجنون فــي ســيره مــدخل ســوق "الصالحية" حتى تشكلت خلفه مسيرة افتتحها المراهقــون بالتصفير والتندّر المسفّ، ولحق بالرّكب أطفال تــسوّلوا في طرقات البلد أياماً وعادوا صفر اليدين.

وهبطَ الساحة نزلاء الفنادق الرخيــصة الــضّجرين، وساهم معظم من مروا (مرور الكرام) في مرافقة موكب الرجل الضليل الذي اشتم رائحة تآمر، فضاعف ســرعته هرباً، وضاعفها الماجنون فأدركوه بسهولة.. وقف برهة ملتفتاً حوله بحيرة ومهانة قبل أن يلتقط جريدة وسخة لفّها حول خصره فاشتد التصفير، واحتدّ هتافٌ ولمزٌ خبيث..

وطارت (ناعوسة) المدينــة وهــي تتــابع بعينــين

وغدا يسيراً على العجوز أن يختطف بقايا (السندويشات) التي عافها الرجلان في لحاقهما بالمسيرة فمكثت على طاولة قريبة من مدخل المطعم.

وباتت عربة الترمس وحيدة على الرصيف دون أن يفكر أحد بسرقتها.

وعبثت الريح (بالتيورات) المعروضة في محل الأزياء بعد أن خرجت العاملات وأشرعن الأبواب فجعل الغبار يرشق بعنف شاشة الكومبيوتر المسمّر في قسم المحاسبة.

وبقيت البنات الأربع واقفات كشموع مطفأة دون أن يجرؤن على استراق نظرة إلى الرجل الهارب والحشد الماجن خلفه، وتناهت إليهنّ قهقهات مارّة انضموا لشرطي المرور الذي بارحه الهمّ تماماً وتهلّلت أساريره لطرافة ما يدور.

وختم كثيرون تفكّههم على الرجل بتصاريح موجزة:

-مجنون.. أو سكران.. أو الله أعلم.

آخر ما فعله المجنون رداً على المهزلة التي ارتكبها مطاردوه ويئس من ردعها: جلوسه على الرصيف..، وبعد أن صوّب نظرة يتيمة ملؤها أسىً إلى وجوه المهرجين الذين التمّوا حولهُ كأنما ليخنقوه.. دس يدهُ في كُمّهِ وأخرج شيئاً كالخبز وشرعَ يأكل بأناةٍ وهدوء..، ولم يرفع رأسهُ بعدها.

***

عدلت البنات الأربع عن التسوّق، وذهبن كلٌّ في ناحية.. واخترتُ- وكنتُ إحداهُنّ- طريقاً إلى مطبعة أعرفُها.

فكرّتُ خلال سيري بموضوعية أن يكون المرء (مجنوناً) أو (ثملاً) أو منحلاً أخلاقياً، ويجهد في الوقت ذاتهِ لستر عُريه عن الناس. واهتديت إلى اعتقاد مفادُهُ أنّ الأحكام التي تصدر عن البشر بوصفهم حيوانات (عاقلة).. قلّما تتسم بالتبصر والعقلانية. وحتى لو أُدينَ المجنون بهذا الداء أو سواه فهل كان صعباً على تجّار الأقمشة والألبسة الجديدة أو المستعملة أن يهبوا خرقةً أو منشفة أو ذراع قماش أو ثوباً بالياً يُداري سوأة سكّير أو مخبول أو مختلّ أخلاق؟!

في /18/ شباط 1999، لم أكن أعلم أنني والحزن على موعد، فيما تتطرب مدينتي، ويهلّل أهلها ويهزجون

جاش الحزن نقمةً عارمة في صـــدري، فاقتحمـــت المطبعة كلـــصوص البنـــوك. بعـــد شـــرح دهـــش لـــه الحاضرون، مكثت وقتاً ثم غادرت وبيدي رزمـــة أوراق رحتُ ألصقها على الجدران..

قرأ بعض الناس المنشور ونظر إليّ بغرابة، وثمّـــة من أومى إليّ ليستفسر عن أمـــر، وآخـــرون تهامـــسوا، وكثيرون بدؤوا يتعقبوني في تقدّمي الحثيـــث بمنـــشوري عبر أحياء المدينة.

قد تتشكّل في إثري مسيرة أو يُقال أني مجنونـــة أو ثملة أو الله أعلم.

مع هذا شعرت بهدوء حميم عمّني فـــي ختـــام يـــوم عاصف إثر لصقي للورقة الأخيرة وكانَ كتب عليها:

"عموم آل بني آدم بأصولهم وفروعهم، من كل مكان وزمان بأنسابهم المعمّرة في التاريخ والمـــستحدثة فيـــه، وألقابهم المتجذّرة في أحشائه والعالقة على جلده.

ينعون إليكم بروع لا يدانيه روع.. موت فقيدكم الذي لا يعوّض:

الزمـــــــــــــــــــــــــــان

الوقت أضيق من أن تُقام معازي أو تُقبل تعازي

الوقت وقت احتضار

فليحمل كلٌ منكم فأساً فيحفر قبرهُ بيديه..، وجميعكم.. ناساً كنتم أم غير ناس، ملائكة أو قطاع طرق، أحياء أو شبههم، موتى أو ما يعادلهم..

وزمنكم معكم إلى بارئكم عائدون".

1999/3/7

❐❐

الفراشـــــــة والـــــبنت

-بابا.. أُريد إجاصة

كرذاذ بلّور تحت شمس الظهيرة برقــت عينـــا الأب بوميضٍ حانٍ:

-خذي يا روح بابا.

ومن الكيس المفضوض على عجل حلّقــت الثمــرة لمسافة قصيرة، وتطايرت الطفلة لتلتقطها بجمع يــديها.. فركتها براحتها وطرف فستانها، تأمّلتها مــأخوذة بلونهــا الجميل وقالبها المخصور، ومن البطن المنتفخة باســتدارة كاملة أخذت قضمة.

الأسرة المؤلّفة من خمسة أشخاص حطّــت رحلهــا (للسيّران) في بريّةٍ من تضاريس نزقة، فإلى اليسار غابة

-تجنّب الحُفر

في بقعةٍ موشومة بالسواسن والرياحين فردت المرأة الشابة الحُصر وهيّأت المبارك بفـراء المـاعز ومـساند الإسفنج والطراريح.

وشرعَ الزوج الودود يفرّغ خبايا الأكياس والصناديق المحزومة على الجذوع الساقطة للشجر.

كان كل من "كيمو" و"بيرو" .. وصديقهما "شوشـو" يُعدّ خطة للخلوة العائلية واستقصاء الغابة.

كيمو لبيرو: -احزر كم "زنبوراً" سأصيد

بيرو: - هس.. ستسمعكَ أمكَ وتفشل خطّتُنا

-ولكنني جئت لصيد الزنابير

-وأنا يا غبي، لكن سنمتطي الأشجار أولاً ونجلـب فراخ العصافير.

تدخّلَ شوشو: -الزنابير القانصة خطرة، والتسلّق إلى العصافير أخطر، إن كان لا بـدّ مـن الـصيد أقتـرح /الزيزان/... إنها حشرات مسالمة عموماً.

لم يخب ظنّ الأخوين ببداهة صديقهما. أبرمَ الثلاثة اتفاقاً وضربوا في جهات متعاكسة، فلا أحبّ إليهم من قنص الزيزان وربطها بخيوط والتلويح بها حتى تنطبش على العشب دائخة مُجدّفة بأذرُعها وأرجُلها.. فيثملون من الضحك..

صاحت الأم في يقظة انتباه:

-لا تبتعدوا يا أولاد..

وتلملمت الأصوات الغرّة في أصداء متراتبة لتلئم الخدش الحاصل في اطمئنان الأم:

-لا تخافي يا أماه..

وبكل حنان الأبوّة وزخمها وقلقها ناشد الرجل طفلته:

-بابا "رنين". لا تذهبي بعيداً..

انبثق الصوت الطفولي مغناجاً ماكراً كموسيقا أجراس صغيرة:

-حاضر يا بابا.

خلال دقائق أعدّت المرأة مبركاً لائقاً بجلسة أُنس. وأنهى الرجل فرز المتاع وصف أطباق الفواكه لتأتلق بنور الشمس الغامزة من كوى في غصون الشجر.. أشعل الزوجان النرجلية الممسّكة بمعسّل التفاح، ولحظة تساندا بالأكتاف يعبان منها بافتتان شاعري تناهى هدير صاخب لرحلة مدرسيّة اختارت الغابة ذاتها محطّاً لها.

جَفَلا، انفضَّا عن بعضهما وهبّا مستطلعَيْن

تدفقّ الطلاب من الحافلات الصافّة كغــزاة تتــربين يمجنون إثر غزوة ظافرة، وانفلشوا في المكان ودفــوف (انتصاراتهم) تدوّي على إيقاع أغنية رائجة:

لا بَاكُــلْ ولا بَــشرب لا بَاكُــل ولا بَــشرب

بــس اطلّــع بعيــوني باللّيل يــا دادا باللّيــل

استاء الزوجان. وقبل أن يهمّا بالبحث عن مقيل آخر أفلحَ المشرفون المرافقون –احتراماً لخلوتهمــا– بتــرك مسافة فاصلة بين التجمع الطلابي والمستراح العائلي، وما لبثا أن استظرفا الطقس الاحتفالي حولهما، واندغما بــه.. حتى شفاه "رنين" ترنّمتا بصمت باللحن الأليف:

بيت الشّعر يا عيوني بيت الشعر يا عيــوني

كلّن راحوا وتركــوني بالليل يــا دادا بالليــل

زهدت "رنين" بإجاصتها، ووقفت تهرس بقايا القضمة ببطء بين أسنان مترددة، سلبها المشهد حواسها، دنت من تخوم المحفل البهيج.. غلمان يطبّلون، فتيات يغنّين، جَمعٌ يصفق وجمع يزغرد.. حلقات خجولة للدبكة تتشكل فــي الوسط، قامات يافعة وخصور مرنة رفيعة تتلــوّى فــي رقص إفرادي.

في صقعٍ من الغابة تغلغل أولادٌ ثلاثة قانعين بتفويت فرصة فرح وإشباع فضول، والبحث عن حشرة محــزّزة بأجنحة ضامرة قائم بحماس عند منابت العشب وتجاويف الأشجار وركام القشّ وحواشي التربة المقلوبة.

قال الأب ممازحاً:

-ارقصي معهم يا رنين.. سيُجنّون بكِ

استحت رنين، ابتسمت وهي تلعب أكتافهــا تأكيــداً لرغبة غير صادقة:

-لا أريد.

واستثيرت الفتيات ببراءة البنت وخفرها، فاختطفنهــا إلى الحلقة الراقصة، عانقنها، قبلنها بالتناوب، دُرن بهــا وتمايلن..

أخلينَ لها الساحة وصفّق الكل مشجعاً مقحماً مقطعــاً مرتجلاً على الأغنية..

نزلت مغــا عالــساحة خــدودا بلــون التفاحــة

شفافا بسكوت وراحــة بالليل يا حبيّــب بالليــل

يا بترقص يا ما بترقص يا بترقص يا ما بترقص

جاعل عمرا ما تــرقص بالليل يا حبيّــب بالليــل

ورفعت رنين ذراعيها الرّيانتين ومعهما الإجاصـــة، واجتهدت عبثاً لفتل وسطها الممتلـــئ ولـــوي خـــصرها الكربوج يميناً ويساراً.. أعادت المحاولة مرات، فتجسدت كدمية معدنية جامدة إلاّ من هزّات مرتبكة متقطعة تحدث كأنما بكبسة زر أو إدارة محور حركي.

وانطلق ضحك خنـــق الحلاقـــيم والأنفـــاس ونكـــز الخواصر والأكباد..

رُدت رنين إلى أبويها وكانا يشهقان مقهقهـــين مـــن إخفاقها وانفعالها الرافض للهزيمة.

صاحت مستشعرة فقدان شيء عزيز مع كرامتها:

-الإجاصة

ناولوها الإجاصة الساقطة من يدها في لحظة انكسار وتراخٍ ذليل.

وانبرى والدها يقبّلها مكفّراً عن (ذنبه):

-تسلميلي.. يا إجاصة البابا انتِ..

تلوّت في حـــضنه بعنـــف، تفلّتـــت مـــن ذراعيـــه الحميمتين، وثبت إلى العشب.. كدشت بحنـــق إجاصـــتها واستدارت عابسة

عمدت أمها إلى استرضائها:

-العبي قليلاً يا "رنوّ" ريثما يجهز الغداء..

"رنّو" لم تلعب.

بل خاضت في السهب مبتعدة حتى ركنت إلى حجر أملس قرفصت عليه. تأملت بحزن إجاصتها المنهوشة في موضعين وأجهشت في بكاء، حينها.. شرع أبواها يعدان المشاوي والسلطات فيما أولئك البنات "السيئات" في ظنّها يواصلن غناءَهُنّ "الكريه" مع "السيئين" من الصبيان منشدين:

لعيونك يا بو أحمد رح ضلّ وما رَحْ أبْعُدْ

لا تبكي ولا تتنهّد باللّيل يا عمري باللّيل

جعْلك تتهنّا وتسعد جعلك تتهنّا وتسعدْ

ويبلى الشامت والحاسد بالويل يا عمري بالويل

وفي الطرف المنفي للأجمة الظليلة لم يعرف الصبية الثلاثة ما جرى للطفلة، ولو عرفوا.. أطلقوا زيزين أو ثلاثة ضبطوهم بعد لأي وعناء، وحضروا لكفكفة دموعها. عندها، سينقفون طلاب المدرسة بالبحص ويسفقون الرمال في عيونهم وأطباق طعامهم مجبريهم على مغادرة المكان إلى حيث لا يزعج أحدٌ "رنّو" أو يضايقها.

دامَ نشيج الطفلة لحظات قبل أن تُنقّل عينيها بحثاً عن

أرادت استقدام أبويها للفرجة، وأقعدها عن ذلك خوفها من فقد الفراشة، وكانت هذه تطبق على الثغور وتمتص رحيق الحب مسافرة من زهرة إلى أخرى، افتتنت رنين بلونها الفوسفوري الأخاذ ونقوش بنّية غريبة التصاميم انطبعت على جناحيها، كما انطبع في عينيها البنفسجيتين حجمها الكبير ووضوح قرني استشعارها.

أُغريت مجدداً بدعوة أبويها.. بابا.. ماما.. تعالا انظرا.

ولجمت صوتها بداعي الحرص على استبقاء الفراشة ومحاولة صيدها وكم تمنّت حضور كيمو وبيرو خصوصاً..، إنهما صيادان بارعان ولولا هذا ما ارتفعت حصيلة زرازيرهما إلى عشرين في وقت قصير، خيالُها المتفائل حدّثها بذلك فقد استرقت السمع إلى أخويها ولم تشِ بهما.

تسلّلت باستنفار تام فوق أقراص /الأرضي شوكي/

زعلت "رنين".. حردت هنيهةً لكن ممّــن؟! فأبواهــا يصالحانها عقب كلّ (حَرْدة) تفتعلُها، أما تلك (الزهّــورة) المهفهفة الطيّارة فلا تعيرها أقل اهتمام.

وقررت أن ترتقي الصخرة إليها.

في جهةٍ ما.. ضحك كيمو وبيرو وشوشو بخلاعــة وتشفّ جبان على الأزياز المعلقة بالخيطان والتي كــانوا يسمّون واحدتها (أم علي) وكــانوا يلــو لحونهــا عاليــاً صارخين..

بوْعَلي بوْ عَلي تَعَاشوف أم علي

وتحت ظلال الخرنوب أكبّ الرجل علــى الحطــب اللاهب يهوّي بمروحة كرتونيّة متفحصاً شرائح لحم البقر وجوانح الدجاج، والمرأة تقلّب بأصابعها خليطاً مفرومــاً للبقدونس والبندورة والبصل والنعناع... وراءهما تمامــاً، لم تغفل حناجر الفتيان دقيقة عن الغناء دفعاً لجوع ألهمهم أنشودة طريفة قبيل الغذاء:

طِلِعْ وْليفــى عالنخلــة تا ياكُلْ خبزة وبــصلة

يمكن مانو مشتاق لـــي بَالّليل يا ساري بَالّليـــل

يا بينزِل يا مـــا بينـــزِلْ يا بينزِل يا ما بينـــزِلْ

جاعل عمرو مـــا ينـــزِل بَالّليل يا ساري بَالّليـــل

تعلقت البنت بنتوءين حادّين على جـــدار الـــصخرة وشدّت أعضاءها إليهما، فانزاحَ الجسم بصعوبة وتثاقـــل إلى فوق، وانخمشت ركبتاها كأنما بأظافر قطة متمردة... تمددت لاهثة فوق الصخرة، فستانها بلون خدودها تـــشمّرَ عن جسمها وإلْيتها..، لم تهتم تلك الـــساعة إلا بفراشـــة فوسفورية مُنقّشة مُزوزقة تتقافز من موضع لآخر علـــى السطح الصخري المدبّب، ثمّ تحطّ قريباً منها.

رفعت يدها. وقبلَ أن يفضح الظل المنسحب اتجـــاه اليد وغايتها صفعت بكفّها ذلك الموضـــع ...، رَعـــشت الفراشة وحلقت باضطراب وبطء ملحوظين ثم تأرجحـــت على سياج أسفل الصخرة... فرحت البنت، والتمعَ الخبث في عينيها البنفسجيتين المحملقتـــين...، ستـــصيد أخيـــراً فراشةً حلوه.

هبطت إلى الأرض بوثبـــة متهـــورة، دارت حـــول الصخرة لا يعنيها شيء من أمر الأشواك التـــي مزّقـــت (كنار) فستانها. الواجهة اليمينيّة للصخرة تقترب من سياج

مدّت أصابعها رنين. وساعةَ أوشكت تلمس جناح الفراشة المصاب ولدهشتها... خفقت تلك وطارت بعنفوان إلى ناحية أخرى من السياج... اقتلعت الطفلة قضيباً شوكياً وظلت تهشّ به على الحشرة الفارّة، ومن فتحة في السياج هربت الفراشة واستقرت على باقة أقحوان تاخمت الأسلاك الشائكة من الجهة المقابلة.

جثت البنت منتظرة. ولّما لم تتحرك الحشرة نبقت برأسها خلال الفتحة المستديرة. ركزت نظرها على الفراشة المتغافلة ولم تَجُسْ بعينيها الأبعاد .... وحين استجرّت باقي جسمها وأفلحت في تخليص إليتها العالقة بالشِّباك... سمعت المخلوقات الغابيّة أسفل الوادي أصداء ضعيفة ممزّقة لصرخة طفليّة تُشبه تناغيم أجراس صغيرة متلاطمة، وكانت كتلة ضئيلة حمراء متذبذبة مترجرجة تطوح إلى هوّةٍ مريعة منساقةً لجذبٍ أرضيّ لا يختلف في قوانينه الفيزيائية عن شُرعة الغاب من حيث حياديّته العمياء للضحية– موضوع التجربة.

ووقتَ توجّسَ قلب الأم من غياب البنت وهَمَّ الصبيان الثلاثة باستدعائها...، وقبلَ أن تتحضّر الأسرة المنكوبة لفاجعتها...

كانت الإجاصة المنهوشة في موضعين لا تنفكّ تستريح على حجر أملس.

ومُزقٌ لقماشٍ أحمر ترفرف على سور شائك مثقوب على بُعد يسير منً لافتة صفراء خُطّ عليها

"تجنب الحفر"...

ووحده الله يعلم أين كانت الفراشة الآن.

أما جوقة الفتيان فودّعت الجوع بمقطوعة أخيرة...، ها هي تهمّ بالطعام غافلةً عما يدور هاتفة:

والزّينة طلعت عالبيرْ تتشيل من البير الزيرْ

ما بتعرف شو رح بيصير بَالّليل يا أسمر بَالّليل

يا بتوقع يا ما بتوقع يا بتوقع يا ما بتوقع

جاعل عمرا ما توقع بَالّليل يا دادا بَالّليل

1999/5/10

❐❐

اختراق الضاحية

جهدت /لِيَا/ هذا الصباح كي لا تبدو بنفس مزعزعة وهي تستعد لإحماء جسمها بالتمرينات المألوفة، وعبثاً فعلت فخفقان قلبها بلغَ الذروة حين ازدحمَ مضمار الجري بمنافساتها في سباق خمسة الآلاف متراً.

وكانت معدتُها تجأر بشراسة وعصاراتها تئن بوضوح مخجل، وإذا أمكنَ ليد أن تتحسسّ أسفل بطن /ليّا/ ربما شعرت بدفق الزغابات المعوية واضطرابها في القنوات المتعضّلة.

ليسَ من عادة /ليّا/ أن تُفطر في الصباحات التي تخوض فيها منافسات رياضية أو تخضع لتحدٍ بدني يروز قدرتها على التحمل والسرعة معاً، كأن تنطلق في سباق

إنَّ رشفات من الشاي أو الماء في مناسبة كهذه كفيلة بتأزيم التوتر العصبي لـِ(لِيَا)، وتنجح السوائل في الحالة العادية بتعديل مزاجها الصفراوي. مع ذلك، يُستغرب أن تشكو أعراض إدرار البول قبيل بدء السباق... فمع إعلان النداء التمهيدي تحسّ بغتةً باحتقان مثانتها فتهرع لإفراغها آملةً ألا تضطّر لإعادة الكرّة، لكـــنّ العـــارض البغـــيض يعاودها ثانية وثالثة ولا تتخلص منهُ إلاّ ببدء السباق.

حالة نفسية، تعرف، لكن لا ســـبيل للجـــم الخـــوف وتثمين الثقة بالنفس مما يدفع (ليا) لقضاء ليلة مؤرقة قبل يوم أو يومين من موعد المباراة.

المدرّب أكّدَ أنّ لياقتها البدنية جيدة، وشكّت هي بذلك استناداً لامتلاء فخذيها وميل قامتها للقصر، لكنهُ أقنعها أنّ ليونة الألياف ومرونة العضلات والمفاصل هي العامـــل الأهمّ، ويقتصر دور الرشاقة كعنصر مساعد على اكتساب صفات العدّاء الجيّد. وقالَ أنّ عندها استطاعة عالية على التحمل، أما السرعة فثغرة نقص يكفل ترميمها التـــدريب الشاق وتُمتلك فعلياً في معترك السباقات الهامة. وعليها إذ

جلجلَ صوتٌ عبرَ المكبّر:

– النداء الأول لسباق خمسة الكيلو مترات جرياً... فئة شابّات.

قليلاً، ويقع قلب (ليا) على الأرض. فقد جفلَ ونطَّ مفزوعاً حتى كادَ يفرّ من صدرها بحثاً عن موطن أمان...

حاولت أن تقرأ وجوه المتنافسات...، عثرت في بعضها على الاضطراب ممّوهاً بقناع من الوجوم. وفي بعضها لمست استعلاءً لا مبالياً أواطمئناناً متواضعاً، أو برود جليدياً لا يشي بشيء فلامت جُبنها وتخاذلها..، تخلّصت من (البيجاما) الثقيلة واتجهت بالشورت و (الشَّيال) إلى المضمار المكسو بطبقة من (التارتان) الفاخر، وفي الأعلى غصَّ الجناح المقبي من المدرّج بالمتفرجين.

تساءلت (لِيَا) ما سيكون عليه شعورُها حين تعود ثانيةً إلى الاستاد؟ فمنهُ المبتدأ وإليه المآب...؟ برأس عالية أم واطئة ستعبر بوَابتُه العريضة؟ بتصنيف أم بلا تصنيف؟

تحرّكت في (الحارة) الأولى رواحاً ومجيئاً، مشياً ثم هرولة ثم ركضاً خفيفاً، فمتوسطاً، فسريعاً...، وثبت في المكان ببطء ثم بسرعة عادية، ثم بسرعة فائقة حتى تخلّصت من الشعور بالثقل والتشنّج. وبهدوء، أجرت تمارين تمسيد أصابع القدم وتليين الكعبين والكاحل وبطّة الساق وعضلة الفخذ...، وثبت مجدداً لتحتفظ بحرارة جسمها... دارت بخصرها وجذعها يميناً، يساراً، للأسفل، للأعلى، للخلف...، وحلّقَّ ذراعاها في اتجاه دولابي واحد، ثم باتجاهين متضادّين ثم تصالبا أمام الصدر، وجهدت لجعل محور الدوران ينطلق من العضد وعظم الكتف.

إلى جانبها يقف المدرب منتظراً اللحظة المناسبة لقياس نبضها.

العام الماضي خاضت (ليا) البطولة أول مرة، حققت بصعوبةٍ نصراً مقبولاً فانتزعت المرتبة الخامسة مناصفةً، ولَشَدّ ما أخجلها فارقٌ هائلٌ في البعد بينها وبين من سَبَقَتْها. شعرت به حين انفجرَ الجمهور ضاحكاً لحظة دخولها الاستاد مع مناصفتَها وكل منهما تتفانى لسبق الأخرى فكأنَّ خلاصة الوجود ومغزاه رهنٌ بهذا الأمر،

بكت كثيــراً ووارى المــدرب امتعاضــهُ ببرودتِــه المألوفة متمتماً:

- لا بأس، الفشل بداية النجاح. ولــم يبــالِ كثيــراً بمعنويات (ليا) أو تطوير أدائها، فمسؤوليتهُ تتوقــف عند إعداد متسابقة تمثّل النادي في بطولة الجمهورية.

- النداء الثاني لسباق خمسة كيلــو متــر جريــاً- شابّات.

أنهت (ليا) إحماء جسمها فأحسّت به يتّقد كفرن، لكنّ قلبها عادَ يخــضخض كعــصفور محاصــر، وانتبجــت مثانتُها،.. هرعت إلى الحمّام، ثم خرجت واطمأنّت إلــى جاهزيّتها.. واستوت على خط البداية.

من موضعها تعرفت على البطلة الأولى التــي مــلأً حضورها النفوس رهبةً، وتلك التــي قاسَــمَتْها الفــوز، ووجوه واثقة مُعتدّة، ملامح عنيــدة وجفــصة، فحــزرت فشلَها سلفاً.

أزاحَ المدرب عن كاهلِه ما تبقّى من (واجبِه) نحوها موصياً:

نظّمي التنفّس... /2/ شهيق.. /2/ زفير ....، رَخّي كوعَيكِ، واحني جذعكِ للأمام. الدَّوْس على كامل القـــدم، وفي السرعة دوسي على الكعبَيْن لا الأمشاط... افتحـــي (فِنْشاً) ودَوْبلي على القريبات.

لا تلتفتي مقدار (إنش) إلى أية جهة.

– النداء الأخير لسباق خمسة كيلو متر...

انتظمت الفتيات في أرتال متعاضدة وتربُّص عَلَنـــي، وكَوْكَبَتُهنّ النّاغلة تُشبه فُسحة ملغومة تنتظر الانفجار...، أكثر من مرة أُعيدَ إيعـــاز الاســـتعداد لـــشروع بعـــض الموتورات في الجري قبل شارة الإطلاق.

أحنت /ليا/ جذعها وارتكزت على يُسراها، لا يمكن الآن أن تشعر بتكثّف المادة الحمضيّة أسفل خاصـــرتها، ولا باختلاج مكوّنات تجويفها البطني أو صفير معـــدتها. وباتت إيقاعات قلبها خفيفة كأنامل تنقر علـــى دفّ رغـــم الصوت الجهوري الآمر:

– استعدّ ...

– طاق ...

نشرَ المسدس لساناً من الدخان فوق الكتلة البـــشرية الرّامحة، وتدافعت الأرجل على سجادة /التارتان/ تلـــبط الأرض بعنف وغادرت المتنافسات الملعب إلى الـــشارع

جارت /ليا/ العداءات سرعةً فقد جــرَينَ باســتطاعة متوسطة، ولم تبالِ باللواتي جازفنَ بالتقدّم فلا بُدّ أن ينفق /كازُهُنَّ/ قريباً. ولَم تبارحها الرّهبة المقرونــة بحــضور بطلة يراهن عليها الكّل تمضي بقلب ثابت وعــزم واثــق يشد جبينها رباط اخضر وَزِيُّها أصفر يبهــر الأنظــار، ميّزت /ليا/ على ظهره الرقمَ /80/ وابتأســت لمقارنتــه بزيّها الأسود البغيض ورقمه المنفّر /133/.

على الأرصفة والأسوار، مــن النوافــذ والبوابــات والبلاكين أطلَّ الناس على كرنفال رياضي مثير. فناجين القهوة الصباحية على الأكفّ، الغبطــة مباحــة للجميــع والانشراح يوزّع مجاناً على وجوه مكدّرة بمتاعب يــوم جديد. وطغى صخب دراجات ناريــة لعناصــر شــرطة المرور وعواء جهاز الإنذار في سيارة إسعاف مرافقة.

هُرعت الفتيات في سرب متماسك انشقَّ عنهُ جنــاح تقدّمَ بوتيرة أسرع.

إنهنّ مغامرات يُراهِنَّ على الفــوز مــن المرحلــة المبكّرة. وغاظَ /ليا/ جريُهُنَّ بحمــاس شــرس وأرجــل اسنفجيّة لا تعرف الكَلَل، ولا يكاد يُسمع خبْطُهــا علــى الإسفلت، أما جسمُها فيهتزّ ويحطّ كشوال مــن الحنطــة المبلولة ..... لا مجال للمقارنة، فهي تشبه بضآلتها غباراً

تعبَ ذراعاها، فتنبّهت لخطأها في شدّهما للأعلـــى، وأسدلتهما باستقامة تخلّصاً من بوادر التّصلُب مما تـــسبّبَ في إبطائها ومَكّنَ بعضهنّ من تخطّيها قليلاً، أمـــا تلـــك الصفراء الرامحة فبدأت تبتدع فنوناً في (إلقاء) الأخريات وراء ظهرها مسافةً بالغة. إنها تتلّوى كراية تتناهى إلـــى الصغر كلما ابتعدت، وتأكدت /ليا/ أنها ستختفي بـــالمرّة عن الأنظار وستشرب العصير بانتعاش مـــع المتفـــرجين حين تفد أول الواصلات فتجد شريط (الـــشرَف) مـــسدلاً على الأرض.

قدّرت /ليا/ المتقدمات عليها بخمسَ عـــشرةَ لاعبـــة فيئست تماماً.

باتَ أقصى رجائها احتلال مركز بينَ العشرة، فقـــد تنجح في اجتياز بعضهنّ، ضاعفت سرعتها بلا جـــدوى فالشارع أمامها يستقيم على حين تلعب المنحنيـــات دوراً تحريضياً في إحياء قواها رغمَ القوة النابذة للـــريح التـــي تلطم الصدور وتزعزع توازن الخطا. وجفلـــت لخطـــىً ترددت قُربها فغالبت ترهُّلَها وفتحت /فنشاً/ لمسافة مئتـــي متر متنصّلة من الخصمات خلفها.

بدأ الطريق يتمايل بخروج السباق إلى الشرفات الجبلية، فأحسّت /ليا/ باليد السحرية تفك الأثقال عن بطّتي ساقيها، وتحرر وركَيْها من اليباس وقواها من الضمور مع إيقاع جسمٍ ينطلق بخفة تلقائية على قوس جبلي مقداره أربع مئة متراً، وأيقنت أنّ الحركة السفلية تبدأ من عجزها، وأنّ مَدَاسَها على كعبيها فعَمّها الرضا.. وخلال التعريجات رأت المتسابقات الأوائل متناثرات بين طيّات الهضاب وشعاب الوديان، وعثرت بعد كَدّ على ثلاثة منهنّ في متناول سيطرتها... استماتت لكسر البعد الفاصل، وبجهد خارق ألقت بهن خلفاً، ولم تعجب لتشظيّ أنفاسها واحتقان صدرها، أما ذلك الشعور بالغثيان فطبيعي بعد سرعة فجائيّة...

ودّت /ليا/ لو تطرف بلحظها لتحدد موقعها من المتقدمات علّها تضع تصوراً لمرحلة تالية.. وبرقت في ذهنها تحذيرات مدربّها قاطعةً كسيف:

(لا تلتفتي مقدار إنش إلى أية جهة)

تخيلت شقيقها الأصغر يقرفص على عتبة الدار متلهفاً لرجوعها:

"- هيه...، أحرزت مركزاً؟!" تنفي بهز رأسها وتدخل البيت مكسورة الخاطر..

وعدَ أبوها أن يلحق بها على دراجة هوائية، قد

وتمّنت ألاّ يَبّر أبوها بوعدهِ لـــئلاّ يـــرى انحطاطهـــا وخِذيانها.

لاحظت /ليا/ أنها تسابق نفسها منذُ وقـــت ولا تكـــاد تحسّ بمخلوق، وشعرت برائحة التربـــة المفلوحـــة فـــي البساتين وبتوغّل الفلاحين والسّقائين في بحار الخـــضرة المترامية، واستغربت خلُوّ المنطقة من مراقبي الـــسباق، حتى شرطيي المرور يستمتعون بمواكبة الرياضيّات فـــي المقدمة ولا يبالون بأمر المتأخرات. وعلى عتبة التفـــاف جديد ميزت انسحاب عدّاءة مرهقة مـــن الـــسباق، إنهـــا بالضبط التي ناصفتها مركزها...

حثَّت خُطاها بحماس، منافساتُها البعيدات يحرصـــنَ على التّراص في فواصل متقاربة، فأدركـــت أنّ الـــسباق يدخل مرحلة الكيلو متر الأخيرة، فبعـــدَ دقـــائق ســـتجهد الواحدة منهن لسبق قريناتها بشق الصّدر...

وكأنما بالعدوى...، انهدَّ حَيلُ /ليا/، وفقدت تحكُّمهـــا في جسمها وساقها التأمُّل إلى إهمـــال ضـــبط تنفّـــسها، فوَخزَها قلبُها ووهنت ركبتاهـــا. إنهـــا تجـــري اللحظـــة بمخزونها من التحمّل فيما تتناقص سرعتُها علـــى نحـــو

هاجَمَها دوّار فرمشت أهدابُها المثقلة بالعَرَق. وجرعت هَبّة هواء حطّت كحجر على رئتيْها الصغيرتين، ولمّا احتارت بشدة بين متابعة السباق أو الانسحاب...، وساعة أوشكَ الطريق على وداع البساتين ملتفاً إلى مدخل العاصمة حيثُ تشهق منارات الاستاد الرياضي بالارتفاع... انفلتَ من مزرعة قريبة كلب أَحلك من ليل في كهف واندفعَ كأنما ليعدو خلف /ليا/.

لم تؤمن /ليا/ المسكينة خلال أعوامها السبعة عشرَ بصداقة الإنسان للحيوان. وكان شعوران يتناهبانها بصدد هذه المخلوقات: القرف أو الخوف، أحياناً الاثنين. ولم تستطع ان تفتح صفحة ودّ مع الصيصان والعصافير فكيف الحال مع الكلاب؟!...

إنها تخافُها إلى حدّ الهَلَع وارتعاش الفرائص وتشك بقدرة العلاج النفسي على تهذيب هذا الشعور وفضّ عقدتها (الكلبيّة).

لا مكان للفرار، ولا أثر لمنقذ أو مُجيب نداء، الساحة مكشوفة لصراع مضمون العواقب..

وامتدَّ الطريق باستقامة...، لا يُجدي إلا الخوض أماماً...

– عوّ... عو عو عو ...

أحرقت /ليا/ (السفن من خلفها) وبالبقيّة الباقية من (كازِها) أطلقت قنابل خوفها في وجه الريح. أطبقت فكّيها بشدّة، وهصرت حَنَكَهَا مغالبةً الوخز في قلبها وكبدها. أما ساقاها فحلّقتا بلا وزن في الهواء ولم تكن تحس بارتطام كعبيها بالأرض.

لم تركض، إنما طارت طيراناً... وعواء الكلب الأسود يمزق نياط قلبها.

احتقنت عيناها بالدمع وصدرُها بالانفعال وأنفها بالمخاط...، أين سيعضُها هذا المسعور؟ لابدّ سيغرز كلالِيبهُ في قصبة ساقها، لَم لا، إنها دسمة...، وإذا وثب ماطّاً قامته فسينهش ساعدِها ويقضم تفاحة كتفها المكتنزة.

– عوّ ... عوّ وّ وّ وّ ...

استبسلت /ليا/ في فرار أُعجوبي من اللعنة السوداء خلفها و (العوعَوّ) التي تطاردها كفوهة مسدس طائش، ولم تعي بلَل فخذيها بإفرازات مالحة، ولو وَعت لتساءلت إن كانت من منشأ بولي أم عرقي فهي تسبح في العرق من نافوخها إلى مُقعّر قدمها.

لا تذكر بالتحديد من أفادها بمعلومة عن علاقة اللون الأسود باهتياج الكلاب، ولا تستطيع الجزم بدقّتها. يكفي أن تضبط الكلاب كائناً يجري كي تطاردُه بغريزة عدوانية عمياء...

لص؟!

(عفواً، إنني لستُ لـصّة أيهـا الغبـي). أرادت أن تصرخ فُنباح الكلب لم يتوقف، لكن هل يتهيّـأ لهـا أنـهُ يخفت؟! لو التفتت (إنشاً) لأعطت الحيوان مبرراً إضـافياً لمطاردتها واتهامها بشيء... وهكـذا، غالبـت ضـعفها واختلاط مشاعرها بين رعب وألم وغضب وتعب وابتهال وشفقة على نفسها، وشعرت جسمَها مفرغاً مـن الـداخل كأنه بلا أحشاء والهواء يسبح بين جدرانه، وهي تطيـر، تطير، تمسخ الأبعاد وتحتضن الجهات، ...وأهمّ ما فاتهـا في حمّى هلَعها تصوّر المسافة التي سـلختها، والـسرعة الإعجازيّة التي جعلتها تنقذف برشاقة زرافة، وشراسـة محارب، ومضاء باشق، ولم تعلم كم كتفاً لطم كتفها؟ وبكم ذراع وخاصرة احتكت يدها؟ وكم وجهاً التفـتَ صـوبها مبهوراً.. .

تحركت أمامها وحولها أشباح ممّوهة الحقيقة مجهولة الماهيّة وسمعت نداءات مشتبكة وأصوات عاصفة ورأت مخلوقات تخبخب عن يمينها ويسارها ثم تنطفئ تـدريجياً حتى لم يبقَ شيء... أما الكلب الذي انشغلَ عنها لـشأن من شؤونه فبقيَ صوته يرتجّ في أذنها بغطرسة وفخامـة كمطرقة تقرع صاجاً نحاسياً:

– عَوّ عو عو عو .. .

ومن الكُوى المفتوحة في غَبَش عينيها، أبصرت /ليا/ على مقربة باب ملعب أولمبي يُشرع صدرهُ لاحتوائهـــا، وشريط عرضاني بطول أربعة أمتار وعـــرض عـــشرة سنتي مترات ينتظر ملامسة خصرها...

ولم تصدق عينيها فأسرعت تحثها صـــيحات النـــاس وفرقعة الأكفّ اللاهبة لتلمس ما رأت لمس اليد، وظلـــت تجري غير مـــصدقة إلا أنّ أحـــداً يُمازحُهـــا أو حلمـــاً يُراوغها. وانبعثَ من بين الخيالات العارضة ما جعلهـــا تؤمن بالحقيقة وتلمس الواقع بحواسَ صادقة، فهـــا هـــوَ رجل تعرفه جيداً يسبقها على درّاجة هوائية. خلفـــهُ فـــي صندوق خشبي صغير مطَّ ولدٌ لطيـــف جذعـــهُ الغـــضَ، ولوّح لها هاتفاً بفرح:

– ليا !!!!! ..... نحنُ هنا !!!!! ...

أخيراً انسحبَ الشريط بخفّة وَهفهفَ علـــى الأرض، ودخلت (ليا) الاستاد بذراعين مرفوعتين وسعادة ذاهلـــة فهاج الجمهور ... صفرَ وصفقَ وهلّل وزمـــر، وكانـــت الكاميرا المحمولة تواكب المشية المختالة لبطلـــة خمـــسة الآلاف متراً ولوحة الكومبيوتر العملاقـــة تـــسجّل رقمـــاً قياسياً جديداً، أما حكّام النهاية فيدوّنون في الجداول الرقم (133) إلى يمين المركز الأول.

وفوق منصّة التتويج وقفت شاباتٌ ثلاث.. ..

واحدة تبتسم بقناعة واكتفاء.

وواحدة واجمة في زيّ أصفر وقمطة خضراء

وواحدة تبكي فرحاً...

وإذا سُئلت هذه الباكية لمـــن تهـــدي فوزهـــا.....؟

فستفكّر كثيراً وقد تجيب:

إلى كلب في لون ردائي.

.1999/4/24

❐❐

الخط الحديدي

"إلى بيروت... حاضنة طفولتي"

منذُ عشرينَ سنةً كنا نقطنُ تلكَ البلاد. كـشأنِ آلاف الأُسرِ الزاحفة بمعدات فارغة لاصطياد فـرص عمـل. وطالَ تنقُّلنا بين البطاح قبلَ أن نستقر في العاصمة.

وكي لا نتبجّح أو نَدّعي (التحضّر)، أعترفُ بأننا لم نسكن قلب العاصمة بل أحد أطرافها المنسيّة، ومكثنا حتى اندلعت الحرب الأهلية التي لم تنسَ شيئاً ولم تذر.

كانت حارتُنا النائية تشكّل همزة وصل بين المدينـة وأطراف جبال جرداء. إنها تترامى إلى موضـع سـكّة قطار أفلحت في وضع حد للتكاثر الفوضوي لمـساكنها. ولم يشذ عن القاعدة إلاّ مدرسة أثرية من طبقـة واحـدة

وفي حارتنا، كما في العاصمة، كما في تلك البلاد، كانَ الأمانِ منهوباً حتى بعد رحيل المستعمر الذي ترك البلد فريسةَ مفارقات فاضحة تبدأ بالتسميات وتنتهي بالحروب الدامية. ففي شارعنا تصادف أسماءً كـَ: "عبد الرحيم" و"رامي" و"عائشة" و"حلا". وتجد: "ألفريد" و"سيلفانا" و"روزماري" و"جان بول".

وفي حارتنا أجانب بجنسيات كثيرة وانتماءات دينية متعددة وبها مواطنون أصليون وآخرون "متأصلون"، وبعض شركس وأرمن، وعصبة يهود، فلا غرابة أن تتعرف بأحد فيقول لك:

– اسمي "مَردْكيْـان" أو "جـاكوب" أو "أزنيـف" أو "حرطوم".

فتردّ مشدوهاً:

– تشرفنا.

القطار العابر وحدهُ كان يجمع دونَ تمييـز. يُلملـم شتات الناس ويؤلّف بين القلوب.

من عشرينَ سنةً كنتُ في التاسعة، وفي طفولةٍ كهذه لابُدَّ أن تتبلور خبرتي بأقراني، فأنتمي لُعصبة من الرفاق أختارُها أو تختارُني أو أثبت معها في غربال السنين.

وكانَ القطار سلاّك دروب، وحلاّل قلوب، تهرع إليهِ الأجساد الصغيرة بأشواق كبيرة، فما أن يُشير العقـرب إلى الواحدة إلا ربعاً حتى تنفرط حلقات اللعب، وتـنفضّ التجمّعات فلا سباقات الجري، ولا استعراض العضلات، ولا النطّ بالحبل، أو قذف الكـرات أو ركـوب الدراجـة مسموحاً في وقتٍ كهذا. ومن كانَ نائماً أفـاق، أو غائبـاً حَضرَ، أو مكلّفاً بعمل أدّاهُ بسرعةٍ أو أَجّلَهُ أو اعتذرَ عنهُ، ومن جاعَ أكلَ كمجنونٍ أو تناسى جوعَهُ، ومن مرض جرَّ نفسهُ من السرير أو أطلَّ من الشّباك.. المهم أن يتلاقـى الكل عند الواحدة على ضفاف السكّة الحديديـة. فمـا أن يتناهى الهدير إلى آذاننا ويصل القطار حتى نرفـع أنـا و"شوشو" و"هديل" و"ليليان"، و"ميشو" مناديلاً ورقيّة نطوّح

ياقِطار.. يا َحبّوب

يا سلاّك دروب دروب

ياساكن جُوّا القلوب

ويُلوّح لنا المسافرون بتعاطف وامتنان. أحياناً ينفتح شبّاك فترمينا يدٌ بحفنة من السكاكر أو قطع النقود، أو نُقذَفَ بطابة أو بالونة أو صاروخ ورقي خُطّت في حواشيهِ رسالة. ونسرع إلى غنائمنا فيما يتابع القطار نُواحَهُ عابراً السّكة:

ــ آووووو.... شك شك شك شك

شك شك شك شك

نُشيِّع القطار بأنظارنا وأفكارنا حتى يغدو نقطة سوداء يمتصُّها الأفق مُبقياً على شريط دُخانٍ يعلق برهة في الفضاء ثم يتبدد ــ كالسحر ــ متماهياً في الغيم. ونعود أعقابنا إلى ولدناتِنا وشقاواتنا فلا نُبارح السكة ــ التي تنغل كخلية نحل ــ قبل ساعة أو اثنتَيْن حيثُ تتبارى البنات في الوثب بين العوارض الخشبية كما في

ويصعب ــ واللعب في أَتونْهِ ــ أن نُبالي ببيــت أو غداء أو فرض مدرسي ينتظرُنا دون أن تُرسل أمهاتُنا في طَلَبنا، أو يأتينَ بأنفسهن مُغضبات فيسحبننا من شعرنا أو قمصاننا، فمن انصاعَ لأمهِ مضى معها خَجِلاً أو محزوناً أو ناقماً. ومن عصاها لازمَ السكّة بعضَ وقت حتــى إذا لمح أباه عائداً إلى البيت سبقه إليه ملتمساً كتمان الــسر، وإلاّ عادَ من تلقاء نفسه متضوّراً جوعاً.

وفي طريقنا إلى المدرسة تعترُضنا الــسّكة الحبيبــة ذهاباً وإياباً. فنتفنن في عبورها، فَــ /جانو/ مثلاً يُحلّــق كرمح عابراً الجسرَينْ بوثبة جريئة يُعينهُ طــول ســاقيه. ويعتمد /شحّود/ على طول جذعهِ وخفّتِهِ فيندفع راكــضاً على مسافة من الجسر الأول، يلقي بثقلهِ على كفيه ليحطّ على قدميه ويستقيم واقفاً وراء الجسر الثــاني، فتنفلــت (الآه) من شفاهنا إعجاباً رغمَ علمنا أنه يتلقّى دروساً فــي (الجمباز). أما أنا وأمثالي ممن قلّت حيلتُهم فنقطع الــسكة

سألتُ نفسي مراراً عن موقف أصحاب الأحياء الأخرى من القطار: أيحبُّونه مثلنا؟ أم يتضجّرون من هديره الصمّام وهباب أسود يباغت الشرفات والسطوح (فيعقّم) لهم الغسيل؟ ربما لا يتأثّرون لأنّ مسار الخط الحديدي يبدأ في تباعد تدريجي عن المدينة قبل مغادرة حيّنا متابعاً مرحلة موحشة من السير عبر أنفاق جبلية مهجورة، ولا يُعلم إن كانَ يعاودَ الاقتراب من البلد...

قبيل العبور الليلي للقطار، أستيقظ عفوياً لأصغي لنواحه الحزين، فأتصوره يزرع الكون كله حضوراً. وأتساءل إلى أي مكان في العالم يمضي؟ وفي أي المحطات يمر؟ وأي ناسٍ يحمل؟ فيما يغدو صوتُهُ أشد وضوحاً ونغمته أعمق حزناً عنها نهاراً. وعلى بحة ناي أثيرة، ومرثية ساحرة أغمض أجفاني فيردد الصدى:

ــ آووو.... شك شك شك شك

شك شك شك شك

ثم نشبت حرب داخلية... فتوقفت أسئلتي.

***

بدأت الحرب باضطرابات وإضرابات متفرقة استهلكت شهوراً قبل أن تعمّ البلاد. وحُكيَ عن إصلاحات ومصالحة يلتمّ بها الشّتات. وكنت صغيراً على فهم مايجري، لكن الفهم وعدمه سيّان في هكذا أحوال. فقد استحكم الخوف على الجميع، وجرت اشتباكات جماعية وفوضى ولصوصية. وخزّنت السّلعَ وغلت الأسعار، وكان طبيعياً أن تغلق المدارس وتتحول إلى ثكنات عسكرية، ومنها مدرستي (ديمانش) مما أغبطني، فقد ارتحتُ من نصوص القراءة الفرنسية التي لا أفقه منها حرفاً. ومع خروج أول طلقة غضب، أعلن استنفار، وقسمت الأحياء بالمتاريس، وهرع الناس إلى الملاجئ مفزوعين.

بدأت المعارك بالعصي والسكاكين والحراب وتطورت إلى مسدسات وبنادق ورشاشات وقنابل... وكانت القذائف تثقب حيطان البيوت، وتُطوّح بالفراندات، وتبقر واجهات المحالّ،... ويعلو الصراخ مع كل قنبلة تسقط قريباً من الملجأ أو رصاصة تصيب منه جداراً أو تخترق نافذة. وتعلّمنا ــ نحنُ الأولاد ــ أن نفتح فمنا، ونسد آذاننا كي لا نهلع..، ولم يمنعنا هذا من الإحساس

وكنتُ أواجه أهوال الحـــرب بالبكـــاء، والالتـــصاق بحضن أمّي، وتعودّتُ على التبول باللاشعور، والإقيـــاء لمرأى فئران تسرح في الزوايا، وصراصير تدبّ علـــى الحيطان نتيجة حفظ بقايا الطعام في الملجـــأ، إذ يـــصعب أحياناً المجازفة بالخروج وإلقائها فـــي الـــشارع. وكـــان يحدث لـــ/جانو/ و/ميشو/ وسائر رفاقي عوارضي نفسَها. وبالنسبة للكبار فالجزع والصراخ وحضن الأولاد ينتقـــل بالعدوى والغريزة، ويستمر الحال على مد وجزر حتـــى تُعلن الهدنة، فيخـــرج الكـــل لتفقّـــد المنـــازل والأرزاق، وللتبضّع السريع.

في الهدنات الأولى التي عشناها انحصرَ همّنـــا فـــي الأكل والشرب وتأمين وسائل الإسعاف الأوّلـــي. وخـــفّ الحذر مع الأيام، فرحنا نقضي تلك الفترات في تفقد الحي والجيران مع الاحتراز من إثارة غضب المسلحين الـــذين يجوبون الشوارع مكشّرين، أو يسترخون للراحـــة علـــى الأرصفة، وفي مداخل البنايات. ولا ننسى دائماً أن نرشق المدرسة وسكة القطار بنظرات حنين، ونعانقهما عن بعد،

أنستنا الحرب عادات أساسية وطقوساً عزيزة، لكنْ ولعنا بالقطار واللعب عند السكّة بقي خالداً، وكثيراً ما رددنا من ملاجئنا أغنية الترحيب بالقطار. ولطالما حاولنا التقاط أنينه المبحوح الذي تعذّرَ سماعهُ خلال القصف وسَهُل أثناء الهدنة... ثمّ قل مرور القطار في الحارة، وانحصرَ على عبور ليلي غير منتظم، ثم انقطعَ بالمرة إلى أن عاد فاقتربَ من الحي للمرة الأخيرة حين حدث انفجار بين سلسلة انفجارات، كان القطار الحبيب أحد ضحاياها.

وأذكر أننا انتظرنا ــ ذاهلين مروّعين ــ أول وقف لإطلاق النار قبل أن يتوجّه العشرات إلى الخط الحديدي... بدا القطار مهشماً، وألسنة النار تندلع من

وأنشدوا فأنشدنا معهم:

يا قطار.....يا حبّوب

يا سلاّك دروب دروب

يا ساكن جوّا القلوب

وطال غناؤنا ..... وهطلَ مطرَ، ثمّ أُغمِيَ عليَّ.

***

بمصرع القطار احتدّت الحرب، وبدأت تحصد بآلتها العمياء الأقارب والأعزّاء، فقُتلَ والد /جانو/ واستشهد أخو /شحّود/ وعمّ /هديل/، وانفجرت صناديق الـ(ت.ن.ت)، المخزونة تحت بيت الخوري (الياس) أثناء وجوده فيه، فشبّت حرائق هائلة أبادت الحي بمساكنهِ وناسه، فمن بقي مات، ومن فرَّ عاش عمراً جديداً.

نحن كنا من الفارّين، (وحدس) أمّي أنقذنا من موت

وكانت (ديمانش) منارة بأضواء خفيفة، وفي باحتهـــا استلقى حراس وتوزع جنود... وحين تحركت البوســـطة بعيداً عن بلد الخرائب، كان القطـــار الـــصريع وأشـــلاء السّكة... آخر ما ودّعت عيناي.

***

أنا الآن في التاسعة والعشرين.

أحيا حياةً مستقرّة في بلدي الأول، أنعم براتب كبيـــر ومنصب رفيع.. متزوّج، ولـــي أولادٌ أذكيـــاء، وامـــرأةٌ رائعةٌ....، كذلك إخوتي.

أبي وأمي يحظيان بشيخوخة هادئة.

ربما أنساني الزمن وزحمة العمل فظائع جرت مـــن عشرين عاماً. فجزءٌ من ذاكرتي مات. وجزء ضاع، ولا أعلم إن كان سيعود مع أني لا أُرحب بذلك.

شيئان لم تخطئِهما ذاكرتي.... فلا هُما ماتا، ولا هُما ضاعا.

حيَّان في أعصابي، يُدغدِغانها فتتنبّــه فجــراً، ثــمَّ تتراخى وتلين، على رجع نوح حــزين، يقطــع مــشوارَ السنين صارخاً:

ــ آووو.....

ويجلجلُ الكون هديرُ عجلات تُخبخبِ فوق ذلك الخط الحديدي:

شك شك شك شك

شك شك شك شك

1999/1/20

❐❐

بروفات للحبّ

لا أكاد أختلف عن رأسمالي كبير أو نجم هوليـــودي أو صانع سياسة متمرّس قياساً لامتلاء حيـــاتي بالنـــاس. تحضرُني مواعيد أنتظرها ولا أنتظرها.. يـــدقّ البـــاب، ويهمي عليَّ الزائـــرون كـــالمطر، يتوازعـــون نهـــاري بثرثرات وهموم...، يبدو أنني مصبّ لكل شجون العالم وإلاَّ فما سرَّ ارتماء الناس بأحضاني؟

تحضيراتٌ أوليّة للقاءات اليوم تجلو حقيقة الأمر..

تزورني اليوم سيدة أرستقراطيّة، يقترب اللقاء الـــذي يحرص هؤلاء أن يكون دقيقاً، موجزاً، عمليّاً...، القطـــن والمخمل لا يلتقيان، لذا أستبدل كسوتي البسيطة ونعلـــي الطبّي ببدلة متأنّقة وحذاء عالٍ...

البدلة من حرير "الكريب" المعرّق، سترة تحبك على الخصر وتنسدل بارتياح على البطن والـوركين، ذراعـا القبّة يتصافحان في ملتقى النّهدين، أستعين بمشدّ صدري ببطانة الإسفنج لإنهاضهما لمستوى القبّة.

تنّورتي ضيّقة تنحسر عن الركبة بطول إصـبع...، أتبختر أمام المرآة....، أدور على كعبيَّ الرفيعين بأُبّهـة ملكيّة....، يالي من ممشوقة، من يلمحني يجزم بغباء أنّ (القالب غالب)... حتى زنّار (الساتان)، المعقـود حـول عنقي، و(الدانتيل) الخجول المنـساب فـوق ذراعـيّ لا يصرفان الانتباه عن (مشقتي) الفاتنة.

يرنّ الجرس، لا أفتح الباب قبـل أن أنحـت علـى وجهي الجامد خريطة لابتسامة عريضة.

ــ آه سيدتي، مرحباً مرحبـاً، تفـضّلي، شـرّفي، أشرقت الأنوار، حلّت البركات.

تتفضّل سيّدة خمسينيّة، تشرّف الصالة باسـترخائها على كرسي هزّاز بجوار (البيانو)، إلـى حُـضنها يثـب (توتو)، بفراء كثّ وقوائم قصيرة ثخينة تشير إلى أصـل أجنبي.

هلاّ، تفضّلْتِ بالترويح عن نفسكِ؟!

أُناول السيدة مروحة يدويّة حزرتُ أنها تلـزم فـي طقس حارّ فهيأتُها مسبقاً.

مِرسي

بعد تعارف رسمي أغيب في المطبخ وأرجع بكأسي عصير وحبّات (دروبس) أنثرها على البلاط فيندفع التوتو لتشمّمها ولحسها.

تستعلم ضيفتي باقتضاب عن وضعي المهني والعائلي وسنّي وخبرتي الموسيقية...، تبدو لوهلة أولى متغطرسة، مغرورة بمنبتها وحنكتهـــا، بالتـــالي... عـــصيّة علـــى الترويض، لكنها لا تصمد طويلاً أمام إيمـــاءات مؤدّبـــة وابتسامات خجولة أقدمها لها كفرض طاعة يليق بكـــائن أداؤه لمن علاهُ حظوة.

تأمل السيدة أن ألقّن حفيدتها أبجدية العـــزف علـــى البيانو... تتفرج أساريري أكثر فهذا توقعي. ألتمس إرجاء طلبها لحين أسمعها نموذجاً من عزفي، ترحب بتواضعي وبدعوتي، تُرنّح ظهرها على المـــسند الهـــزاز، وتبـــدو منتشية بسماع مقطوعة من (بحيرة البجع)، أرفع أصابعي عن المفاتيح، فتصفّق برصانة وصلف وينـــبح (التوتـــو) الذي صمت لفترة.. تمتدحني كثيراً، تغدو ابتسامتها أقـــل كلفة، أستعيذُ بالله من مدائح جمّـــة تُـــسلمني للغـــرور... تضحك السيدة، تضحك كثيراً فأتجرأُ وأعرب عن رغبـــة بكشف خلفّيات حياتها... تشطح برأسها وذاكرتها للخلف. كمريض في حضرة طبيب نفساني تنبش ذاكرة خيباتهـــا،

تزفر سحابة مكربنة وتقول:

ــ انقــضى الوقــت الــذي كنّــا بــه نــدخّن دون محاذير...(ليتَ الشباب يعود)...

تنزلق بنظراتها عليّ:

ــ قوامك جذاب... يذكّرني بماضيَّ.

"أندهش"... ترتسم أمارات اندهاشي علــى حــاجبيَّ وابتسامتي الذاهلة وانفراج شفاهي، أُعجل فألوم جليــستي على"ظلم " نفسها.. "من يراك سيدتي يعطيك من العمــر خمسةً وثلاثين...، قوامك؟ لا يشي بأكثر من أمومة شابةٌ لطفل أو اثنين.."، أُدلي بأحكامي متعاميةً عــن انــشطاط نهديها ونفور بطنها وضياع معالم خصرها، وأستحــسن صبغة شعرها، درجتُها، ماركتُها فكم تليق بنقاء بــشرتها

تودّعني السيدة بغير ما لقيتني، إنها تمور بالبــشاشة والرضا.

يا الله....، كم أبدو لهــا ظريفــة، لَبِقــة. نــضرب مواعيدعمل بخصوص حفيدتها... تتصرف بيقين تام من (محبّتي) لها.

لا أكاد أُغلق الباب حتى يُرن جرس الهاتف.

أمتعض لالتقاط صوت مألوف.. على الطرف الآخر مدير الجمعيّة الخيريّة لمناشط المعوقين.

ــ تحيّاتي أستاذ، احتراماتي، أهلاً بكم أهلاً....

يُعلمني المدير آسفاً بتقديم موعد المهرجــان الفنــي للأطفال المقعدين، يقتضي ذلك إلحــاق حــصة مــسائية ببرنامج التدريب اليومي. أُبدي تجاوباً فوريــاً مــشفوعاً بدماثة خلق وسرعة جاهزية:

ــ أمركم أستاذ... نحن في الخدمة.

يُزايل القلق محدّثي فيهمّ بــشكري.. أقطــع عليــه الدرب:

ــ ما تقولونَ أستاذ؟.. عفواً عفواً، هــذا، واجبنــا، ينقصُنا فحسب أن نتشرّف بحسن الظن.

يالها من تمثيليّة.

أُنهي المكالمة مستاءةً لإدراج موعد إضافي في لائحتي.. لا يشك الرجل قط بازدواجيتي ونفاقي، وأجزم أنه يغبط نفسه لإبرامهِ عقداً معي... عجينة طيّعة أنا، كنز عطاء، أُستاذة (لُقطة)....

بالكاد أُعدّ الشاي، وأكسح بذيل الملعقة شريحة من الزبدة حتى يدق الباب... موعدٌ غير مرتقب....

تُنبؤني العين السحرية بهويّة غير مؤكدة لزائرتي، أهرش صدغي فأتذكّر.. مابال هذه القادمة تتفقدّني بعد سنين؟..

أُسلم أمري إلى الشيطان فما من غيره وراء مصائبي.أسحب نفساً عميقاً، وإذ أُدير أكرة البابِ أصمم لسحنتي تعابير مستطلعة بريئة...، أصفنُ برهةً في القامة الشاخصة، بعدئذٍ أصيح بابتهاج:

ــ أنتِ ؟ مستحيل!!.. ماتزالين عائشة؟!...

نتعانق، أشدّ زميلة الدراسة إليَّ، أهصرها بين ذراعي، يريحها جيشان عواطفي، يلغي المقدمات التي تُربكها بخصوص تبرير الزيارة...

نجلس كسميرين... ، نتداول أخبار الرفاق. لا ينكشف سر الزيارة. مسحاً للوقت أتسلح بدبلوماسيّتي..

ــ عزيزتي... الضيّعة انسيها، تَبيتين الليلة عندي.

ــ لا.. لا.. غير ممكن.

ــ نتغدّى، نسوح ونتسوّق ونسهر كأيّام زمان...

ــ إن شاء الله مرة ثانية.. فـَـ..

أصعّد وتيرة احتجاجي:

ــ لاثانية ولا ثالثة، سنوات يا منظومـــة لـــم أركِ.. تُخطرين أهلك بالتلفون وتعدين البيت بيتك.

تفتش عن مخرج (للورطة):

ــ وحياتك مرة ثانية، ماكنّا اليوم تلاقينا لو لم أجـــر تحاليل لدى الطبيب.

ما أسرع ماكدر القلق محيّاي:

ــ تحاليل؟ .. خير؟...

أفهم أنهـــا خاضـــت فحوصـــات لكـــشف عـــارض مرضي...التقرير الطّبي لا يجهز قبـــل ســـاعة فـــضّلت (رفيقة الدرب)، قضاءها عندي، أكاد (آخذ على خاطري منها)، لولا تعهّدها الأكيد أن نتزاور لاحقاً.. الوقت يفـــرّ سريعاً.. لحيويّتي وجاذبيّة إصغائي فضلٌ في هذا...

تودّعني الزائرة آسفةً، تحسٌّ قطعةً من قلبها مودعةً

ــ لا تُطيلي الغياب.

الباب يُغلق.

أفّ.. أفّ... أصفع جبيني، الوقت يدركُني. قبل أن يصبح (السيف قاطعاً) أتحضّر لموعدي في الكنيسة المارونيّة. ثمّة تدريبات لجنّاز (الجمعة الحزينة).

هندامي المبهرج يُسيء للقدّاس... ألبس بنطال (شارلستن)، أسود وقميص أبيض بقبّة عالية. أحرص على بساطة مكياجي ونعومة تسريحتي... الأخت (ماري روز)، تصفّ المرتلين في أنساق وتوزّع عليهم الكراريس. لا يُشعرني استقبالها الحار بضرورة تعليل تأخيري. في القاعة بعض أعيان..، يستملحونني إذ أضع يدي على معدتي وأخفض عنقي محيية. أرفع غطاء البيانو وأحدد الأنشودة والمنعكس الواجب إحداثه في نفوس الحاضرين..، (وقاري) هو المطلوب لقدسيّة الظرف.. يكتسي وجهي نبالة صارمة وعبوس تأمّلي زهدي لكنهُ صادق، فاضح لحقيقة طبعي. أوقع أول أنغامي فيواكبه المنشدون بمناجاة مؤثّرة:

ياسيدي كم كان قاسياً

موتُ صليب العار

وحملته من قبل أن يحملك

يابار...

تنسفح ساعتان بين عزف وتجويد أداء جُلُّه يخــصّ بكائيّة (الأم الحزينة) ومرثيّات تُجاريها صعوبة.

وحدها المناحات تردّ صفاء روحي... علائم التعــب على وجوه المنشدين توقظني من انغماسي بعملي. أعلن كفاية التدريب فيبــادرني الحاضــرون بامتنــان عميــق لجهدي. لا أدّعي التمثيل فيما صنعت، لكــنّ انحنــاءاتي المفرطة لدى المغادرة تنذر بالتكلّف لولا تحــاملي علــى نفسي وانطباع بالأنس والكياسة أخلّفه ورائي.

أصلُ البيت. نصف ساعة تفــصلني عــن موعــدي اللاحق. الوقت عصراً... ماعدتُ أشتاق قالب الزبدة ولا بمقدوري طهو ما يُرضي ذوقي ويخرس جوعي. يــرنّ الهاتف. نصف الساعة لا تأذن بالردّ.... يروق للطفولــة غالباً أن نقتدي بها، .. أن تلتقي الأطفال، يعني أن تغــدو طفلاً. تحدوني الفكرة لارتــداء فــستان جينــز وبلــوزة مزركشة وانتعال صندل... أغدو أصغر سناً وأبدى خفّة. لا أُدخل مأوى القاصرين قبل أن أواري تحجُّر ملامحــي ونشافتي وبرودة طَلّتي (بمراحــب) ســارّة؛ وســلامات احتفاليّة:

ــ مرحباً صغاري؟ .. مرحباً كتاكيتي..؟!.. كيــفَ

وجــوه الأولاد تنقلــب أقمــاراً تــستحي وشموســاً تخجل. المباسم تنفرج، تتهلّل، والغمّــازات تنثنــي عــن ضحكات ناعمة.. أحسُّ أنصالاً تحزّ كبدي. في تضاعيف الحزوز قيوح مُنتنة وآلام تتمخّض عن عقدة ذنب.

أيُّ جرمٍ أشنع من خداع براءة؟

أكبس على الفرامل فينكبح شطحان ضميري. أنثــر بأريحية "أمومتي"، الخالصة فيسرع الأولاد علىكراسيهم النّقالة ويلتّفون حولي ملائكة تتبرّك بتمجيد إله:

أبدأ أعزف النّوتة:

دو ري لا صـــــــــول   دو ري لالا صـــــــــول

لا ســـــــــــــــي دو

دو ري دو سي لا صول   دو ري دو سي لا صـــول

فـــــــــا دو فـــــــــا

يترجمون الفونيمات أداءً لغوياً ذا معنى:

رُنَّ الجـــــــــــرسُ   قُـــرِعَ الجـــرسُ

اســـــمعوه....

صـــــوتُهُ جميـــــلٌ   مالـــــهُ مثيـــلٌ

ديـــن دان دون

هل من داعٍ يضطّرني لرصد الحبور البهيج لجوقة عصافيري؟

للسامع أن يتخيَّل حماسة الكتاكيت وتجاوبها مع الأنغام الموسيقية على امتداد حصة التدريب.لا غرو أن العصافير مهيضة الجناح ــ رغم قصورها وعقوق سيقانها ــ تحلّق بنفسها إلى الفراديس مدفوعةً بحب أمومي أنفخُها به، وسذاجاتٍ أفلاطونية تحكم دنياها.

عموماً، يصحّ القول بجاهزيّة النّمرة الغنائيّة لفئة الأطفال المعاقين بالشلّل.... أتستّر على إرهاقي وانتقام جوعي. أقبّل (ملائكتي) فرداً فرداً.. يبادر الإداريّون ــ إذ أنصرف ــ فوراً لشكري.

دعوني وشأني.

يكاد صبري النافذ يصيح فيهم. أتجالد.... أبتسم لهم جداً جداً.. وتنقلب الابتسامة إلى (تكشيرة)، تفضح تشويهات لثّتي.

أدركتُ البيت ليلاً.لا مهرب من تطفّل جارة ضجرة، أو غاوية ثرثرة مؤرقة...، أو مُريد (تسلية)، عبر اتصال هاتفي... بصرف النظر عن التفاصيل...

انهددتُ أخيراً على السرير..

أجود بمائة ابتسامة حارةً وغمزة عين خفرة لمن

حنكي يوجعني من فرط "التكشيرات"، التي وزّعتها اليوم. مقعرة عينيَّ وغمازتيَّ وخدودي تؤلمني أيضاً... لعبوسي دواعٍ موجبة لا مكان لشرحها. فمنذ طفولتي ينادونني (كشّور). لما كبرت اكتسبت مهارة تغليب التطبيع على الطبائع... لا أزعم أني كسرت القاعدة، لكن ثمة (طعوم) ناجعة أصيد بها الآخرين.

بداهتي، طلاقتي، سرعة تلوني، اندفاعات مرحي... عذوبة روحي وطيبة نفسي ونقاء سرائري.. عطائي، دأبي، جسارتي، تواضعي، وإيماني بأنَّ لكل مقامٍ مقال.. والأهمَّ: ابتساماتي الساحرة.. عرابينُ حبٍّ جَمّ أهديه لكل الناس.

مسلسل وقائع اليوم يثبت ذلك. يالي من مرائية.. تصوّروا (كشّور) تبدو غاية في الظرف.

تبغون زيارتي؟

أهلاً، أهلاً بكم كُلي لكم.. عمري، حياتي... أخطب ودّكم بمحبّة صميميّة.

فقط أرجوكم...

أخطروني بموعد الزيارة كي أؤدّي بروفات تليق بحبيّ العظيم.

أنتم *1999/6/2*

❐❐

الفهرس

الخط الحديدي 1
حالة خاصة من النعاس.....7
حكاية سوقية 15
لو لم تكن قدماي تؤلمانني.....24
نعوة زمـــن 38
الفراشـــة والبنت 49
اختراق الضاحية.....62
الخط الحديدي 77
بروفات للحبّ.....89
الفهرس 102

❐❐

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

الخـــط الحديـــدي: قـــصص/ نجـــلاء أحمـــد علـــي-
دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000 -
97ص ؛ 20سم.

1- 813.01 ع ل ي خ 2- 813.009561 ع ل ي ص
3- العنوان 4- علي

ع- 2000/8/1353- **مكتبة الأسد**

❑❑

هذا الكتاب

مجموعة قصصية تتناول المخطوط قضايا إنـــسانية اجتماعية وفردية، يلملم بعض هموم الناس وهواجـــسهم، هموم العيش، هموم الوطن.

هموم الانسان وتوقه إلى الخلاص من أشواك واقع لم يترك فسحة للحرية والنهوض.

❐❐

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية

Syrian Story